

في روضة القرآن

# القرآن والإنسان

فضيلة الشيخ  
محمد الراوي



الناشر

المكتبة الأكاديمية

٢٠٠٩



## حقوق النشر

الطبعة الأولى ٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ

حقوق الطبع والنشر © جميع الحقوق محفوظة للناشر:

### المكتبة الأكاديمية

شركة مساهمة مصرية

رأس المال المصدر والمدفوع ٩,٩٧٣,٨٠٠ جنيه مصري

١٢١ شارع التحرير - الدقى - الجيزة

القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون: ٣٧٤٨٥٢٨٢ - ٣٣٣٦٨٢٨٨ (٢٠٢)

فاكس: ٣٧٤٩١٨٩٠ (٢٠٢)

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة  
كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من الناشر .

الرحمن . علم القرآن .  
خلق الإنسان



obeikandi.com

## الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ .

### خلق الإنسان

ما دلالة أن يأتي الحديث عن خَلْقِ الإنسان، وتعليمه البيان مسبقاً بالحديث عن القرآن، مع أن المراد بـ « الإنسان » هو الجنس. وهو سابقٌ بأجيالٍ على تنزيلِ القرآن.

إذ القرآن قد نُزِّلَ على خاتمِ الرسلِ محمدٍ ﷺ ؟

وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ قَدْ بُدِئَ بِخَلْقِ آدَمَ - أَبِي الْبَشَرِ ﷺ .

وآياتُ الرحمن - كما نرى - قد جاء ترتيبها أولاً بـ ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ (1)

في آيةٍ، ثم يأت بعدها ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ (2)، وإثماً جاء بعدها ﴿ عَلَّمَ

الْقُرْآنَ ﴾ (3)

فجاء تعليمُ القرآن موصولاً بالرحمن.

وجاء خَلْقُ الإنسان بعد تعليم القرآن.

ألا يُعطينا ذلك أن القرآن الكريم - بحقائقه - سابقٌ، ليس بمخلوقٍ

ولا مسبوقٍ ؟ فهو كلامُ الله، المشتغل على صفات الخالق، وحكمة

الخلق، وغاية الوجود.

وهذه الحقائق ثابتة قبل خَلْقِ الإنسان.

(1) الرحمن: ١.

(2) الرحمن: ٣.

(3) الرحمن: ٢.

وقد نُزِّلَ القرآنُ بها - وهو الكتابُ المهيمُنُ، المحفوظُ بحفظِ الله. ليظلَّ الخطابُ بهذه الحقائق موصولاً بالإنسان، يرى فيه من سُنَنِ الله ما كان وما سيكون، إلى آخر الزمان، دون تبديل أو تحويل.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (1)

هكذا - بضمير العظمة المتكرر - يُخبرنا الله بتنزيل القرآن وحفظه.

فلا غَرَوُ أن يكون القرآنُ موصولاً بالرحمن، متصلاً بالإنسان. يعتصم به، فينعم بفضلِ الله ورحمته.

يُذَكَّرُ ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ أولاً، ثم يُذَكَّرُ السَّبَبُ الواصلُ بينه وبين خَلْقِهِ،

ثم يُذَكَّرُ الإنسان، الذي من أجله أنزلَ وبقي موصولاً على مرِّ الزمان. وجاء الرسلُ - جميعاً - مبشرين بحقائقه ومُنذرين، إلى أن خُتِمت رسالتهم بنورٍ وكتابٍ مبين، تُعرفُ به رسالاتُ الرسلِ جميعاً، دون تفرقة بين رسولٍ ورسول.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ

رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَإِنَّا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (2)

(1) الحجر: ٩.

(2) آل عمران: ٨١.

من هنا نستطيع أن ندرك التناسب بين الآيات على هذا الترتيب:

﴿الرَّحْمَنُ﴾

عَلَّمَ الْقُرْآنَ

خَلَقَ الْإِنْسَانَ

عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿١﴾

وأن نعرف شأن القرآن بالنسبة للإنسان.

وأنه الحبل الممتد بينه وبين الرحمن.

\*\*\*

(1) الرحمن: ١ - ٤.

obeikandi.com

# حديث القرآن والإنسان



obeikandi.com

## حديث القرآن

### والإنسان

القرآن الكريم أنزل وحُفِظَ من أجل الإنسان.  
فحديثه عن الإنسان - خلقه ورزقه، وحياته وموته - حديثٌ هادِفٌ يُرَادُ به الإنسان في ذات نفسه، وفي صلته بغيره.  
فهو لمصلحته - وليس مُجَرَّدَ إخبار بما كان وما سيكون من أمره  
فإنَّ الإخبار - عن عِزَّةِ الله وقدرته وعلمه - بلاغٌ للإنسان؛ لتبصرته بما يجب أن يكون عليه من معرفة ربِّه، والاهتداء بهديه.  
فالقرآن - في جميع آياته - هُدًى للناس، وإن بدأ أن ما يخص الإنسان آيات محدودة في القرآن.  
فالإنسان مَلْحُوظٌ - لا في الآيات التي تُذَكِّرُه فحسب - بل في جميع آيات القرآن؛ باعتبار أنه المخاطب والمراد بما يتحدَّث عنه، أو يوحى به.  
ومن أحسن التدبير أيقن أن له - في كلِّ آية من آيات القرآن - تبصرة وتذكرة وعبرة.  
والإنسان وثيق الصلة بالكون الذي يُحيط به، ويعيش على أرضه.  
وحديث القرآن عن آيات الله - في الأرض وفي السماوات - فَيَأْضُ بالعطاء لأولي الألباب، الذين يذكرون الله ويتفكرون.  
وبدأ لا يُعزَلُ الإنسان عن آيات الله، في أيِّ شأنٍ وفي أيِّ حالٍ كان.  
حتى وإنْ أَعْرَضَ عن هذا الذِّكْرِ وأدْبَرَ.

فإن إعراضه وإدباره لا يُخرجه عما يُحيط به من آيات الله، في نفسه، وفي الآفاق من حوله، وهي تتسق مع آيات الذكر الحكيم في مخاطبة الإنسان وتبصرته.

فالمُعْرِضُونَ أَمْ يُوَفِّكُونَ؟ وَأَمْ يَصْرِفُونَ؟

فأي إعراضٍ يمكن أن يكون عن أرضٍ وسما، وهواءٍ وماءٍ؟ والأرض ثقُلهُ، والسما تُظلهُ، وله من الماء والهواء، والزرع والثمار، عطاءً من الله أي عطاء، بغيره لا تقوم له حياة.

والقرآن - وهو يخبر عما يكون من بعث وحساب وجزاء - يخاطب المنكرين بواقع لا ينفك عنهم ولا يغيب. وفي الخطاب تبصرةً وذكرى لكل عبءٍ مُنيب.

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (1).

هذا ما قاله المنكرون.

فبِمَ أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُخَاطَبُوا بِهِ؟

أمر أن يُخَاطَبُوا بِآيَاتِ - لا تغيب عنهم، ولا تخفى دلالتها في أنفسهم، وفي الآفاق من حولهم.

(1) المؤمنون: ٨١-٨٣.

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ  
 قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ  
 ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ  
 شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ  
 فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ (1)

بل ربّما رأينا القرآن يُخاطب الإنسان بآيات الله في نفسه؛ ليعرف  
 قدرة الله في خلقه وبعثه.

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٩١﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ  
 الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٩٢﴾ (2)

هذا الترابط بين فطرة الإنسان وفطرة الكون، ليس القرآن دخيلاً  
 عليه، أو بعيداً عنه.

وجميع آياته تدعو إلى التمسك بالفطرة التي فطر الله الناس عليها.  
 ليتسق الإنسان مع فطرة كل شيء في التسبيح بحمد ربّه.  
 ويستجيب - بإرادته - لما يُدعى إليه، من صديق الوفاء لِمَا فُطِرَ عليه،  
 دون عوج أو ميل. وهو يتعلّم - من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس - ما  
 يدعوه إلى أن يُسَلِّمَ وجهه لربّه.

(1) المؤمنون: ٨٤ - ٨٩.

(2) مريم: ٦٦، ٦٧.

﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (1)

ويتلو القرآن فلا يرى القرآنَ قد أخذه بعيداً عما يرى دلالاته في نفسه  
وفي الآفاق، من وضوح الحق، وبيان السبيل.

\*\*\*

(1) آل عمران: ٨٣.

# وفاق لا اختلاف فيه



obeikandi.com

## وفاق

### لا اختلاف فيه

وفاق لا اختلاف فيه بين ما يُوحى الكونُ به، وما يدعو القرآنُ إليه. نظام الكون - كما نرى - دقيقٌ ومُعَبَّرٌ عن غاية. والإنسان يتعلَّم من الكون دِقَّةَ النظام، وتحقيقَ الغاية. وكلُّما تعمَّق الإنسان في جزئيات هذا الكون وما اشتمل عليه، أفاد علماء، وازداد فضلاً.

ونرى القرآن الكريم يُخاطب الإنسان - من خلال حديثه عن آيات الله في النفس وفي الكون - لتكون التذكرة به قائمة مع الإنسان حيث كان.

فيذا قرأنا هذه الآيات من سورة "الأعراف":

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾  
 ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ۝ ﴿٥٦﴾ (1)

(1) الأعراف: ٥٤ - ٥٦.

نستطيع أن نقف على هذه الحقائق، التي تُرينا مدى التوافق بين ما يُوحى به الكون، وما يدعو إليه القرآن الكريم.

وتلك هي الحقائق:

الحقيقة الأولى:

الحديث عن الربوبية في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

فربُّكم - أيها الناس - وربُّ الكونِ كُلهِ وأحدٌ، وهو ربُّ كلِّ شيءٍ. هو الذي خلقكم، والذين من قبلكم.

وهو الذي جعل لكم الأرض فراشاً، والسماء بناءً.

ولا تفاوتٌ أو تباين بين خلقٍ وخلقٍ.

بل يرى التعاون والتناسب والتوافق.

ولا يخفى ما في قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من فائدةٍ في تعليم الإنسان،

وهو قادرٌ - سبحانه - أن يخلقها في لحظةٍ واحدةٍ.

الحقيقة الثانية:

أن هذه الربوبية تُدبر هذا الكون بصورة مرئية للإنسان، نافعةٍ له.

﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾.

ولا أحدٌ - في أيِّ مكانٍ كان - يغيب عنه تقلُّبُ الليل والنهار، وما

في ذلك من عبرةٍ لأولي الأبصار.

﴿ يُغَشِّي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ أي: يجعل الليل كالغشاء للنهار، فيغطي - بظلمته - ضياءه، كما يُغشي الليل بالنهار، فيذهب ظلمته.

﴿ يَطْلُبُهُ ﴾ طلباً ﴿ حَثِيثًا ﴾ مُسرِعاً، لا يفترُّ عنه بحال.

وفي ذلك - مع التذكير للإنسان - تعليم للإنسان، أيُّ تعليم، بأنَّ كلُّ شيءٍ مرتبطٌ بحكمته، موقوتٌ بوقته، لا يغيب عنه ولا يزيد.

#### الحقيقة الثالثة:

أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ - وهي ما هي في عظم شأنها، ويُعدُّ مكانها وقوتها - مُسَخَّرَةٌ بأمر ربِّها.

وفي ذلك إحياء للإنسان أن لا يتمردَّ على ما يُؤمر به، أو يُدعى إليه.

﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾

وفي ذلك منفعة للإنسان، أي منفعة، وتعليم له أن يتجاوَبَ مع فطرة الكون في القيام بما خُلِقَ له - من عبادة ربِّه - طائِعاً غير مُكْرَه.

#### الحقيقة الرابعة:

هذا الشمول في قوله: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ حقيقة لا يَدُّ عنها شيءٌ.

له وحده - لا لأحدٍ غيره - الخلقُ والأمرُ.

وإليه وحده - سبحانه - لا إلى أحدٍ سواه - المرجعُ والمصير.

وهذه الحقيقة تُعلِّمُ الإنسان - في جميع شئونه - أن يكون عبداً لله،

لا لأحدٍ سواه؛ إذ لا ملجأَ منه إلا إليه.

﴿ وَالْأَرْضَ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ ﴾ <sup>(1)</sup> فَأَيْنَ الْمَفْرُوقُ ؟

#### الحقيقة الخامسة:

ما تضمنه قوله: ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

أي: كثرت بركته واتسعت.

وهذه الحقيقة موحية للإنسان أن يُقدِّرَ ذلك حقَّ قدره وأن يعلم أنه مغمورٌ بفيضٍ من نعمه وفضله، في أيِّ حال كان، في سرِّاءٍ أو ضرِّاءٍ، أو شدَّةٍ أو رخاءٍ؛ حتى يكون - في جميع أمره - راضياً عن ربِّه، تعاضلاً شأنه، وتعالى قدره، ولا إله غيره ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

#### الحقيقة السادسة:

التوجُّه بالأمر إلى عبادته، في قوله: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ أمرهم - سبحانه - بالدُّعاء. وقيد ذلك بكون الدَّاعي متضرِّعاً بدعائه، مُخْفِياً له.

والتَّضَرُّعُ: من الضَّرَاعَةِ، وهي الدُّلَّةُ، والخشوع، والاستكانة. والخُفْيَةُ: الإسرار بها؛ فذلك أدعى للإخلاص والبُعد عن الرِّياء.

﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

أي: المُجَاوِزِينَ لما أمروا به، في الدعاء وفي كل شيء. فمن جاوز ما

(1) الزمر: ٦٧.

أمره الله به - في شيء من الأشياء - فقد اعتدى، والله لا يحب المعتدين.

### الحقيقة السابعة:

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾

بأي وجه من الوجوه، قليلاً كان أو كثيراً، مادياً كان الإفسادُ أو معنوياً؛ فإن الله - عزَّ وجلَّ - قد أصلح لنا الأرضَ من كل وجه، ونهانا أن نُفسدَ فيها بعد إصلاح، وأرانا كيف نُصلحُ ولا نُفسد، ونُحسنُ ولا نُسيء، بما أرسل من رسول، وأنزل من كتاب.

فإذا ظهر في الأرضِ فسادٌ فهو بما كسبت أيدي الناس.

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ

كثيراً ﴾<sup>(1)</sup>

### الحقيقة الثامنة:

ما تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ

مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ مِمَّا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، مِنَ الْخَوْفِ

والرجاء؛ ليُحسنَ ولا يُسيء ﴾ ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

والله قد كتب الإحسان على كل شيء، ولم يستثن من ذلك من شيء؛

لما يتضمَّنُهُ الإحسانُ من تجرُّدٍ، ومراقبةٍ، وإخلاصٍ، ومن تجويدٍ وإتقان.

وقد سُئِلَ الرَّسُولُ ﷺ عَنْهُ، فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: « الْإِحْسَانُ

(1) فاطر: ٤٥.

أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (1)

واشتمال العمل على الأمرين - الإخلاص، والإتقان - هو السبيل لما يُرجى من حُسن المثوبة والجزاء.

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (2)

وهكذا يُخاطبُ الإنسانُ.

ويؤمَرُ بالعبادة، والدعاء، والإصلاح، والإحسان. ويُنهَى عن الفساد، والاعتداء، والإساءة.

من خلال الحديث عن الكون، والإيحاء بدلالته للإفادة منه. لا في معاش الإنسان ومتاعه فحسب، بل للإفادة منه في اعتقاده واستقامته، وأداء أمانته التي حملها. ترى ذلك في أخطر قضايا الاعتقاد شأنًا، وهو (البعث) بعثُ الموتى من قبورهم.

ترى الدليل على تحقق وقوعه يُساقُ في فطرة هادية مما يقع في حياة الإنسان، دون تكلفٍ أو عُسْر.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ

سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ

(1) مسلم: كتاب الإيمان.

(2) الكهف: ٣٠.

الْتَمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ (1)

يُذَكِّرُ النَّاسَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ عَنْ طَرِيقِ مَا يَقَعُ - دَائِمًا - فِي حَيَاتِهِمْ،  
من إنزال الماء، وإحياء الأرض بعد موتها.

فكما نُخْرِجُ مِنَ الْأَرْضِ مَا كَانَ مَطْمُورًا فِيهَا مِنْ حَبٍّ، بِإِنزَالِنَا  
الماء، فَنُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا. كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ بَعْدَ أَنْ  
غُيِّبُوا فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ.

﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (2)

وهكذا نرى الوفاق بين ما يُوحى الكون به، وما يدعو القرآن إليه  
من اعتقادٍ، أو استقامةٍ، أو عمل.

والإنسانُ المستبصرُ يفيد من الكون آياتٍ وآياتٍ وآياتٍ، تُحَقِّقُ لَهُ -  
إِنْ هُوَ اسْتَبَصَرَ بِهَا - أَبْرَّ الْخِصَالِ، وَأَكْرَمَ الصِّفَاتِ، فِي سَعْيِهِ وَعَمَلِهِ.  
وهو يرى كُلَّ شَيْءٍ يُوَدِّي مَا خُلِقَ لَهُ، فِي انْتِظَامٍ لَا تَفَاوُتَ وَلَا  
اِخْتِلَافَ فِيهِ.

يرى الشمس تطلع عليه، ثم تغيب في وقت محدد، دون سبقٍ أو  
تأخير، فيأتيه الليل والنهار - لسُكْنَاهُ وَمَعَاشِهِ - آيَةٌ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ، مُبْصِرَةٌ  
مُذَكِّرَةٌ، يَتَعَلَّمُ مِنْهَا مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ فِي آدَاءِ عَمَلِهِ، وَتَحْقِيقِ غَايَتِهِ  
لَا خُلْفَ فِي مَوْعِدٍ..

(1) الأعراف: ٥٧.

(2) فصلت: ٣٩.

لا خَلَلَ فِي نِظَامٍ..

لا عَوْجَ وَلَا مَيْلَ فِي اتِّبَاعِ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٢٧﴾ وَالشَّمْسُ  
تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ  
حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٢٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا  
اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (1).

هذه الحركة الكونية الحية المتجددة، التي تتفاعل في حياة  
الإنسان دون توقف أو انقطاع، هي زادٌ متَّصل للإنسان، أي زاد.  
لا في معاشه ومتاعه فحسب، بل في إيمانه واستقامته وبقينه.

وأنت تراها تُساق إليك في آيات تُتلى، تتسق مع كل ما تراه من  
آيات ربِّك، في الآفاق وفي الأنفس.

فلا ينغزل الإنسان بما يقرأ من قرآن، بل يسبحُ بثوره في أجواء  
الزمان والمكان.

وهو إن تأبَرَ على تلاوة القرآن فحفظه، لم تقع عينه على شيء في  
هذا الكون إلا وتذكَّر به ما يدلُّ عليه في القرآن.

إنَّ حركةَ الكون - لدى أولي الألباب - داعيةٌ إلى ما دعى إليه  
القرآن وبصَّر وأنذر.

(1) يس: ٢٧-٤٠.

وما أجمل أن ترى بلاغة القرآن في آياته مقروءة في آفاق الكون وصفحاته.

تقرأ في القرآن:

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (١)

فترى ذلك في صفحة الكون، وأنت تستجيب لأمر ربك. يتنفس الصبح، فتري فيه دلالة ما قرأت في القرآن عن الفجر ومن يشهده. يخبرك القرآن، فتري في الواقع خبره.

فلا ينفك الإنسان عن حديث إليه، من فجر يومه إلى غسق ليله. حديث متواصل، تقشعر منه جلود، وتؤوب نفوس. ويجد الإنسان متعته وخشيته، وزينته وحقيقته، في انساق فطري، لا تعارض فيه ولا تفاوت، ولا اختلاف ولا تناقض.

وذلك حين تُعرف مقاصد القرآن، وتؤخذ هدايته. وحين تُعرف لغة الكون، وتُدرك حقيقته.

عندئذ تتحقق الغاية التي من أجلها خلق الكون، وخلق الإنسان. ويهتدي الإنسان إلى الصراط المستقيم، الذي من أجله أرسل الرسول، وحفظ القرآن.

وتقوم بالإنسان - وهو يتفاعل مع الكون - حضارة كاملة، تُصان

(1) الإسراء: ٧٨.

فيها الكرامة، وتُحفظ الحقوق، وتؤدَّى الواجبات. ولن يكون ذلك إلا باستلهاً ما في الكون من دلالات، هي أعظم وأبقى من أن تكون مجرد زينة زاهية أو متاع. وتدبر ما في القرآن من آيات هي لمصلحة الإنسان في جميع مراحلها، في متاعه ومعاشه، وعاقبته ومصيره؛ حتى لا يُؤخذ الإنسان بظاهر الحياة الدنيا، وينسى عاقبتها، أو يُشغَلَ بزینتها عن حقيقتها وغايتها. من هنا كان اتساق القرآن والكون في مخاطبة الإنسان لغاية واحدة، هي مصلحة الإنسان في أن يُحقق ما خُلق له في سعيه وعمله، وفي علاقته بغيره.

وذلك حين يعرف حكمة خلقه، وغاية وجوده. ومن تدبَّر فأحسن التدبر، عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الْغَايَةَ يُجْمَلُهَا قَوْلُ رَبِّهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾﴾ (1).

وذلك ما يُوحى الكونُ به، وكلُّ شيء فيه مُسَبَّحٌ بحمد ربِّه. وما يدعو القرآنُ إليه، وهو يهدي - في كل شأن - للتي هي أقوم. وهذه الغاية - والعملُ لها - هي التي تُحقق الضوابط التي يُحسن الإنسان بها ولا يُسئ، ويُصلح ولا يُفسد. وهي التي يُصانُ بها الفهم عن العبث، والاعتقاد عن الباطل.

(1) الذاريات: ٥٦، ٥٧.

والعَبَثُ يكون عندما يقفُ الإنسانُ عند دُنياه، ولا يزيد.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (1)

والباطلُ اعتقادٌ فاسدٌ، يُنسى صاحبه يومَ الحساب، ويقودُ إلى سوءِ

العاقبةِ والمصيرِ.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (2)

وكلاهما - العَبَثُ والباطلُ - يلازمهما الهوى المُضِلُّ، والأنانية

الجشِعة، والكِبَرُ الأبله، والظلمُ المفسد.

يلازمهما ما يُفسد علاقة الإنسان بأخيه، وقد قطعت علاقته بربه.

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴾ (3)

وهؤلاء لم يأخذوا من الكون دلالاته وهم يعلمون ظاهراً من الحياة

الدنيا، وإنما أخذوا متاعه وزينته.

ودلالة الكون مُعبِّرة عن خالقٍ يُعبدُ ولا يُجحد. مُعبِّرة عن رحمةٍ

واسعة، ونعمة سابغة ظاهرة وباطنة.

﴿ وَعَدَّ اللَّهُ ۗ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(1) المؤمنون: ١١٥.

(2) ص: ٢٧.

(3) المؤمنون: ٧٤.

يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ (1)

فلنر القرآن في آيات الله، في الآفاق وفي الأنفس.

لنؤمن ونعمل بما نزل من الحق.

ولنتدبر أمر الكون في آيات بينات من الهدى والفرقان.

لنفرق بين الحق والباطل، فنحسن - في كل شيء - ولا نسيئ.

وسنرى القرآن معنا إذا تنفس الصبح، أو عسعس الليل.

سنرى القرآن يعلمنا كيف نُسبح بحمد الله حين نصبح وحين

نمسي

سنراه معنا إذا أنزل الله لنا من السماء ماءً، وأخرج به ما شاء من

الثمرات رزقاً لنا.

يُعلمنا - ونحن نرى آثار رحمة الله بنا - ماذا نقول وماذا نعمل؛ حتى

لا تتحول نعمة الله في أيدينا - بكفرها - إلى نقم علينا.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي

لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ (2)

سنرى القرآن معنا - بهدأيته - حيث كنا.

إذا سرتنا في البر، أو ركبنا في البحر، أو صعدنا في الجو.

سنراه معنا في ضيق أو سعة، في سراء أو ضراء، في شدة أو رخاء.

(1) الروم: ٦، ٧.

(2) إبراهيم: ٧.

سنراه في شئوننا كلها، وفي أحداث حياتنا: إذا استقبلنا مولوداً، أو شيعتنا مفقوداً.

سنراه - بهدايته - يعلمنا ما يجب أن نكون عليه في أخص ما تكفه صدورنا، وما نُعنه.

سنراه في هذا الكون إذا هبَّت الرِّيحُ أو سَكَنَتْ.

سنراه في البحار، أو الجبال، أو السُّحاب.

سنراه في طيرٍ يطير في السماء، أو في سباحٍ يسبح في الماء.

سنراه في حديثِ نملةٍ، أو تدبيرِ نحلةٍ.

سنراه بهدايته وعبرته وموعظته.

نراه في الأنعام ونحن نُسقى مما في بُطونها من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

كما نراه في تقلُّبِ الليل والنهار.

نراه في ركعاتِ الساجدين، واستغفارِ المستغفرين بالأسحار.

فما من أمرٍ إلا وللقرآن فيه كلمة.

وما من شأنٍ إلا وله فيه تبصرةٌ وموعظةٌ.

وآياتُ الله - في الآفاق وفي الأنفس - دائمة الخطاب للإنسان بما يخاطبه به القرآن.

فلا ينفكُ الإنسان - أبداً - من حديثٍ إليه يُوقظه من غفلةٍ، ويحفظه من نسيان.

حديث نفسه إليه وهي تُخاطبه بما فيها من آيات يستبصر بها.

تُخاطبه دَقَاتُ قلبه، وآياتُ سَمَعه وبصره، وبُيُوتَانُ جسده.

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (1)

لا ينفكُ الإنسانُ من مخاطبة الكون، لا لكي يعرف ربَّه معرفةً شعور وعاطفة، بل لكي يعرفه معرفةً يقين وعمل، وسعي وحركة، واستقامة وخشية.

معرفة تُرى نتائجها في جميع أمره.

معرفة تُستلهم من نظام الكون وتناسقه، والإفادة منه، في تعاونٍ لا تنافرٍ فيه، وتجاوبٍ لا خلافٍ معه.

لذا نرى القرآنَ كثيراً ما يخاطبنا من خلال حديثه عن الكون؛ ليظل الإنسانُ - دائماً - موقظاً بالتذكرة، مُخاطباً بالتبصرة.

وهو يرى الليلَ والنهار، والشمسَ والقمر، والأرضَ والسماء.

يرى كل ذلك ليس منفصلاً عن منفعته، أو معزولاً عن عطائه.

وإنما يراه بتأثيره وأثره، وعطائه ونفعه بإذن ربِّه.

فتكون التبصرة فطرية، لا تكلفَ فيها.

والموعظة حسنة، لا إساءة معها.

والدعوة إلى الله حكيمة، لا عُسرَ في فهمها وتقبُّلها.

وذلك منهجُ القرآن في الدعوة إلى الله.

يُخاطبك بما هو قائمٌ فيك، أو مُتَّصِلٌ بك.

من نفسك، أو من الكون، الذي لك منه قرارٌ وبناءٌ، ورزقٌ وعطاءٌ،

وحلَقٌ وحياءٌ.

(1) الذاريات: ٢١.

وأنت فيه - بعد موتك - وديعةٌ مُسْتَرَدَّةٌ حين يبعثك الله.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ ۞ (1)

\*\*\*

obeikandi.com

# الإنسان مخلوق مسئول



obeikandi.com

## الإنسان

## مخلوقٌ مسئول

وفي المسئولية تكليفٌ، وتشريفٌ، وتكريمٌ.

الإنسان قد خلقه الله..

وجعل من خلقه تعريفاً بخالقه.

وَبُرْهَاناً عَلَى قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ.

وقد شاء الله أن يتلقى الإنسانُ عن الله ما يُحدِّدُ مسئوليةً، ويبيِّنُ

رسالته، بعد أن زوَّده بالأسباب التي تُعينه - في شتى المجالات - على

النهوض بهذه المسئولية.

وجعل له - من التكريم والفضل - ما يميِّزه على كثيرٍ من خلقه.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ

الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (1).

فهو مخلوقٌ مسئولٌ، وفي المسئولية تكليفٌ من خالقه.

وفي النهوض بما كُلفَ به وبلَّغَ تشريفٌ، أي تشريفٌ.

إنه ليس كما مُهملاً - لا تُتأطَّرُ به واجباتٌ، ولا تُحدِّدُ له حقوقٌ - من

حيث خلقه.

فإن تخلَّى عن مسئولية، أو فرطَ فيها، فقد رضيَ لنفسه أن يكون

(1) الإسراء: ٧٠.

موضوع مساءلة ومحاسبة؛ حيث فرط فيما تميز وكرم وفضل عليه. إنه مسئول متضامن مع غيره؛ لأنه اجتماعي بفطرته وطبعه. مسئول عن الكلمة التي تُقال، والعمل الذي يُعمل. بل مسئول في نفسه عن النية والقصد؛ لأن الأعمال إنما تُوزن عند الله بالنيات والمقاصد.

« إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى... » (1)

والذي يسأله عن ذلك ربه، وهو أعلم به ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ (2) وذلك أصل أصيل في النهوض بالمسئولية على نحو مشروع، يُحقق صلاح المجتمع، ويحفظ كرامته.

لذا كانت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مسئولية تضامنية، يقوم بها الإنسان متضامناً مع غيره؛ ليسلم المجتمع كله من شيوخ الفاحشة والمنكر والبغي.

﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (3)

لذا كان الإنسان - أولاً - مسئولاً عن إصلاح نفسه. ولا يُقبل منه - أبداً - أن يُعلق خطأه على غيره، بعد إعدار وإنذار.

(1) البخاري: كتاب بدء الوحي.

(2) الملك: ١٤.

(3) آل عمران: ١٠٤.

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا تُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۗ وَمَن تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ۝ (1)

ومسئولية الإنسان عن نفسه - في صميمها - مسئوليته مع غيره، متعاوناً على البرِّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان. إنه عضوٌ يؤدي وظيفة في جسد واحد، يتداعى له سائر الأعضاء إن هو أُصيب بما قد يلحق الضرر بغيره. فسلامته سلامة له ولغيره.

هكذا شبه الرسول ﷺ أمرنا بـ « الجسد الواحد » كما شبه أمرنا جميعاً بالراكبين في سفينة واحدة « بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَىٰ مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ». قال الرسول ﷺ:

« فَإِن يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِن أَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا » (2)

ومن هنا يتضح لنا أمام من يكون الإنسان مسئولاً.

(1) فاطر: ١٨.

(2) البخاري: كتاب الشركة.

إنه مسئول أمام ضميره مسئولية أخلاقية تُوزن عند الله بميزان دقيق.

فَمَنْ يَعْرِفُ رَبَّهُ يَوْقِنُ أَنَّ مَا يُغْلَقُ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ، لَا يُغْلَقُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ.

ولا يظنُّ ظانًّا أنَّ مسئولية الإنسان أمام ضميره شيء هينٌ أو يسير، بل إنه جدُّ خطير.

إذا لم تُربِّ الأُمَّة أبناءها ليكونوا ذوي ضمائر حيَّة يقظة، فلن يتحقق لها ما ترجوه من أمنٍ، وما تنشده من استقرار.

فإنَّ الجريمة المُبيَّنة في نفس صاحبها لا يَدُّها إلاَّ يقظة ضميره، وخشيته من ربِّه.

فمسئولية الإنسان أمام ضميره هي مسئولية المجتمع كله أوَّلاً في تربية الإنسان على نحو يعرف ربَّه ويخشاه.

وفي تحقيق ذلك تتضافر أجهزة الدولة كلها ولا تتناقض، وتتوحد وسائلها ولا تتنافر.

الوسائل: التعليمية.. والثقافية.. والاجتماعية.. والأمنية.

لأنَّ رصيدَ الأمة الحقيقي في إنسانها.

الإنسان الصالح تصلح به الأمور الفاسدة.

والإنسان الفاسد تفسد به الأمور الصالحة.

ومن حَصَرَ الأمم في الأخلاق لم يجانب الصواب.

فإنَّ الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُموا ذهبوا أخلاقهم ذهبوا

والأخلاق ليست سَمَتاً مظهرياً، وإنما هي عملٌ، وَجَدٌ، وَطَهْرٌ،  
وتعاونٌ، وبرٌ.

هي حياة أمة ناهضة ترى حياتها في عزَّتِها، وموائِها في الرُّكونِ إلى  
غيرها.

فإذا قيل: « مسئولية الإنسان أمام ضميره » لم نُخَلِ الأمة من  
مسئوليتها.

فمسئوليتها أولاً في إحياء هذا الضمير بشئى الوسائل، دونَ خَلَلٍ أو  
تقصير.

والأخلاق ليست فلسفة نظرية لا تُرى حقيقتها في واقع.

إنها ضوابط وحدود، تراها في سلوك الإنسان: في البيت، وفي  
الشارع، وفي المدرسة والمصنع.

تراها - في كل شيء - فطرية لا تكُفَّ فيها ولا عُسِر.

بحيث تصبح عادة راسخة في مظهر الأمة وحقيقتها.

وتستطيع أن تحكم على أخلاق الفرد والأمة - في يسرٍ - من واقع  
عملي، لا من فلسفة نظرية.

خُذْ مثلاً الأخلاق في الشارع، وكيف يقع التعامل فيه.

كم يؤدي تجاوز ضوابط الأخلاق وحدودها فيه إلى ويلاتٍ

وكوارث ؟

إنَّ الإساءة فيه مظهرٌ من مظاهر سُوء الأخلاق.

إذا كانت إشارة المرور "حمراء" فإنَّ قَطْعَ الإشارة - ولو كُنْتَ

وحدك - سوء خلق، قبل أن يكون مجرد مخالفة تُدفع أو لا تُدفع.

إنَّ هذا التجاوز قد يؤدي إلى التجاوز في غيره.

سوء خلق؛ لأن صاحبه لم يلتزم بالضوابط والحدود التي تحفظه وتحفظ غيره.

وإذا رأينا غيرنا يقف عند الإشارة الحمراء ولا يتحرك - ولو كان وحده - فذلك خلق؛ لأنَّ صاحبه التزم بالضوابط والحدود.

ومن الخطأ الشائع أن نقصر الأخلاق على جانب في الحياة دون جانب.

ومن الخطيئة أن نخطئ في فهم ديننا، ولا نعرف قيمة الأخلاق فيه.

إنَّ أخلاق هذا الدين مستمدة من عقيدته.

وعقيدته - كما نعلم - فيها من الثبات والقوة والرسوخ ما يُعطي

الأخلاق - نفسها - رُوح الثبات والقوة والشمول.

فلا تقصر الأخلاق على جانب من الحياة دون جانب، بل هي - في

كل تصرف - للإنسان صغراً أو كبراً.

وخيار الناس أحسنهم أخلاقاً.

والأخلاق ليست سلعة تُباع وتُشترى.

إنها جوهر أصيل يثقل به الميزان يوم القيامة.

وقد يدرك الإنسان بحسن خلقه ما لا يدرك بصيام وقيام.

والأخلاق الراسخة تمنح صاحبها رُوح التجرد من المنافع، والتخلص

من الرِّياء الكاذب.

فلا ينهى الإنسان عن خلقٍ ويأتي مثله.

كما لا يتَّخذ من دعوى الأخلاق سبيلاً للكسب الرخيص،  
واستغلال السُّدج والبسطاء.

وإنما تقوم الأخلاق الصادقة - في نفس صاحبها - مقام المجاهد في  
ميدان الشرف والبسالة، وهو يدافع عن غاية راشدة.

يرفع سيفه ويُخفضه؛ استجابةً لمبدأ..

ويُلقي بنفسه في أثون معركة قد وجودُ فيها بنفسه؛ انتصاراً لإيمانه  
وخلقه.

وكذلك الأخلاق، قد تدفعك إلى أن تبذل كلَّ رخيص وغالٍ، ولا  
تستطيع أن تخرج عن حكمها أو تجاوز حدودها وضوابطها.

فمستولية الإنسان أمام ضميره محاكمة لأخلاقه.

وأخلاقه ليست بعيدة عن محاكمة الناس.

وهي تُرى في واقع مشاهد.

فإذا رأيتَ خللاً في واقع فاعلم أن الأخلاق قد غدت سلعةً تُباع  
وتُشترى.

إذا رأيتَ عمارةً شاهقة في شارع لا يحتملها بمرافقه، فأعلم أن  
تعاوناً وتأمراً على دمار الأخلاق قد وقع، قبل أن تقع العمارة على من  
فيها، وأن جيوباً قد امتلأت، وهي تحسب أنها اغتنت بما صنعت.

ولا تسل عن النتائج حينما يستهين الناس بضوابط الأخلاق  
وحدودها، في أيِّ شأنٍ كان.

وهنا تأتي المسؤولية أمام الناس والمجتمع. أو قل: مسؤولية الناس والمجتمع

الذي يحافظ على هويته، ويدرك رسالة أمته، ويرى عزه في عزها.  
لا بالأغاني والأناشيد.. بل بالأخذ بأسباب القوة والنهوض، وإيثار  
الأخلاق التي تبقى بها الأمم، وتجتاز المحن والخطوب.  
إن قيمة الإنسان في تحمل المسؤولية.  
وهي ذات جوانب متعددة، تقتضي مراجعة دائمة متصلة؛ لتهيئة  
الإنسان وتربيته وإعداده.  
مراجعة لوسائلنا، ومؤسساتنا، وسلوكنا، وضوابط حياتنا كلها،  
دون ترخص أو إبطاء.  
إن هذه التهيئة والتربية والإعداد والتدريب، تقتزن بولادة الطفل  
وتنشئته.

وينشأ الطفل - فينا - كما عودناه، وكما يرى أمه وأباه.  
وينشأ ناشيء الفتيان فينا على ما كان عوده أبوه  
وقد رأينا رسول الله ﷺ يعنى بتربية الطفل وتأديبه في:  
موطن مأكله ومشربه..  
وفي ميدان رياضته ولعبه..  
وفي دخول المنزل وخروجه..  
وفي أوقات نومه وصحوه..  
وفي معاملته مع غيره.  
رأيناه ﷺ يعده لتحمل المسؤولية من صغره.  
وقد رأينا ثمرة هذا الإعداد في كل ميدان من ميادين الحياة.

وقد ضرب لنا هذا المثل في ذلك بتولية الشباب مسئوليات كبار وهم دون الثامنة عشرة من عمرهم.

ولى "أسامة بن زيد" قيادة جيش وفيه أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما -.

ورأينا الصديق - رضي الله عنه - يمشي في ركابه بعد وفاة الرسول ﷺ، وهو يودعه ويستأذنه في بقاء عمر - رضي الله عنه - معه في المدينة؛ لمواجهة كثير من المصاعب بعد موت رسول الله ﷺ.

بل رأينا من هم دون سن التكليف يسرعون إلى مواطن البأس؛ ليجاهدوا مع المجاهدين!

وعندما أعفاهم الرسول ﷺ؛ لصغر سنهم، استعانوا - صادقين - بالبكاء؛ ليأذن لهم الرسول ﷺ أن يكونوا مقاتلين مع غيرهم في ميدان الشرف والفضاء!!

وكان من هؤلاء شقيق "سعد بن أبي وقاص" الذي أذن له الرسول ﷺ - بعد رجاء وبكاء - فكان من نصيبه شهادة في سبيل الله، لا تثنأ إلا بشرف القصد وعظم البلاء.

والله يؤتي فضله من يشاء.

ونرى الرسول ﷺ لا يعفي من المسئولية أحداً في أي موقع كان.

لأن الإعفاء من المسئولية إعفاء من تكريم وتشريف.

ففي الحديث المتفق عليه، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: « أَلَا كَلُّكُمْ رَاعٍ، وَكَلُّكُمْ مَسْئُولٌ

عَنْ رَعِيَّتِهِ.

فَالْأَمِيرُ - الَّذِي عَلَى النَّاسِ - رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ.

وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَالِدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ.

وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ.

أَلَا، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ <sup>(1)</sup>

فَالْكُلُّ مَسْئُولٌ فِي أَيِّ مَوْطِنٍ كَانَ.

وَفِي الْمَسْئُولِيَةِ تَشْرِيفٌ وَتَكْلِيفٌ وَتَكْرِيمٌ.

وَالْأُمَّمُ النَّاهِضَةُ هِيَ الَّتِي تَهَيِّئُ أَبْنَاءَهَا لِذَلِكَ جَيْلًا بَعْدَ جَيْلٍ.

فَإِنَّ الْمَسْئُولِيَةَ وَتَحْمُلَهَا لَا تَجْعَلُ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ مَجَالًا لِفِرَاقِ تَتَبَدُّدٍ

فِيهِ الطَّاقَاتِ، وَتُفْنِقُ السَّاعَاتِ.

المسئولية لا تجعل الشاب - في حيويته وقوته - طريداً يأسٍ أو إحباط،

أو صريع نزواتٍ وشهواتٍ، إذا لم يُشغَلْ بجدٍ أو يُكَلَّفْ بعملٍ، بل إذا لم

يفتح أمامه باب الأمل في المنافسة على نتائج الجد والعمل، بحيث تكون

همته - دائماً - عاملة للصعود إلى أفق أعلى.

ولا أودُّ أن أضرب المثل بما نراه في واقع الحياة عند أقوام أدركوا

هذه الحقيقة - إبقاءً لمجد أمتهم وعزّتها، فجدّوا - بشبابهم - حياة

أمتهم، وأنقذوها من تخلفٍ ورُكود.

لقد فعل ذلك "حزبُ العمّال" حين اختار رئيساً له، استطاع أن يُعيد

(1) مسلم: كتاب الإمارة.

للحزب قوته ونشاطه، وعودته إلى القيادة بعد طول انتظار.  
 وقبل ذلك "حزب المحافظين" عندما اختار لنفسه شاباً أصغر سناً  
 من رئيس حزب العمال؛ طمعاً في أن يبقى الحزب منافساً قوياً في حلبة  
 صراع دولي لا يصمد فيها إلا القادرون المدربون، ولا مكان فيه للضعفاء  
 أو الغافلين المغفلين، الذين يتعلقون بالأماني ولا يعملون.

الإنسان مسئول أمام ضميره. والضمير يحتاج إلى تربية، ومُنَاح،  
 وقدوة صالحة، وحُسن تدبير في العاقبة والمصير.  
 مسئول أمام مجتمعه - والمجتمع يحتاج إلى تعاون وتماسك وترابط؛  
 للقيام بمسئوليته، وسؤال مَنْ يعتدي ويحيد.  
 مسئول أمام ربه.

والشعورُ بهذه المسؤولية يحتاج أن نعي عن الله ما كُلفنا به، وما  
 دعانا إليه، وما حملنا أمانته وحاسبنا عليه. لنكون كما أراد الله لنا -  
 بضوابط وصفات - خير أمةٍ أُخرجت للناس.

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ  
 عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١)

\*\*\*

(1) التوبة: ١٠٥.

obeikandi.com

الأمانة  
التي حملها الإنسان



obeikandi.com

## الأمانة التي

## حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ

لا شك أن للأمانة قدرها وعظم شأنها.

وهذا ما يوحي به قول الله - عز وجل -:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (١)

فإباء السماوات والأرض والجبال، وخوفها من حمل الأمانة، وإخبار الإنسان بذلك، فيه من التنويه ما فيه من عظم شأن الأمانة، وما يترتب على التقصير فيها.

وفيه - كذلك - من التنبيه للإنسان ألا يستهين بأمرها.

وهذا شأن المخلوقات الكبيرة في النظر إليها، وقبول القيام بها فأبين وأشفقن.. ولم يكن إباؤهن كإباء "إبليس" في قوله - تعالى -:

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٢)

لأن السجود هناك كان فرضاً، وهاهنا الأمانة كانت عرضاً. والإباء هناك كان استكباراً، وهاهنا كان استصغاراً؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ أي: خفن من الأمانة ألا يؤدنها.

(1) الأحزاب: ٧٢.

(2) الحجر: ٣١.

الأ يدل إخبار الإنسان بذلك على تنبيهه بالغ له وتحذيره.  
 تنبيه الإنسان - حيث كان - بعظم شأن الأمانة وخطورها.  
 وتحذير من خيانتها، وعدم الوفاء بها.  
 فإن من فرط أو خان لن يفلت من إدانتها، والحساب على خيانتها.  
 وكَم في القرآن من تذكير بحقها، وبيان لقدّر الرّاعين لها،  
 والقائمين بها.  
 وأنهم - بما اشتملوا عليه من صفات الوفاء لها - ناجون مفلحون  
 مُكرمون.

وإذا عرفنا حقيقة الأمانة عرفنا صفات أهلها.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾<sup>(1)</sup>

إن لفظ الأمانة فيه ما فيه من دلالة على الأمن والوفاء.  
 وضدها الخيانة، وفيها ما فيها من نقص ونقض وغدر.  
 فالخون: أصله النقص، كما أن "الوفاء" التمام، ثم استعمل في ضد  
 الخيانة والوفاء؛ لأنك إذا خنت الرجل في شيء، فقد أدخلت عليه  
 النقصان. وقيل: معناه الغدر، وإخفاء الشيء.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ

تَعْلَمُونَ ﴾<sup>(2)</sup>

(1) المؤمنون: ٨، المعارج: ٢٢.

(2) الأنفال: ٢٧.

نَهَاهُمْ اللَّهُ عَنْ أَنْ يَخُونُوا بِتَرْكِ شَيْءٍ مِمَّا افْتَرَضَهُ عَلَيْهِمْ.  
أَوْ يَخُونُوا رَسُولَهُ بِتَرْكِ شَيْءٍ مِمَّا أَمَّنَّهُمْ عَلَيْهِ، أَوْ بِتَرْكِ شَيْءٍ مِمَّا  
سَنَّهُ لَهُمْ.

أَوْ يَخُونُوا شَيْئاً مِنَ الْأَمَانَاتِ الَّتِي اتَّعَمْتُمْ عَلَيْهَا.  
وَسُمِّيَتْ « أَمَانَاتٌ » لِأَنَّهُ يُؤْمَنُ مَعَهَا مِنْ مَنَعِ الْحَقِّ. مَأْخُذَةٌ مِنْ  
"الْأَمْنِ".

﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾  
ما يترتبُ على ذلك.

فما المراد بـ "الأمانة" في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ..... ﴾ ؟ وما الذي يُعين على أدائها والوفاء بها ؟  
قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: « أراد بالأمانة الطاعة والفرائض  
التي فرضها الله - تعالى - على عباده، عَرَضَهَا عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَالْجِبَالِ، عَلَى أَنَّهُمْ إِنْ أَدَوْهَا أَثَابَهُمْ، وَإِنْ ضَيَعُوهَا عَذَّبَهُمْ ».   
وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: « الأمانة أداء الصلوات، وإيتاء  
الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وصدق الحديث، وقضاء الدين،  
والعدل في المكيال، وأشد من ذلك كله الودائع. »

وقيل: هي جميع ما أمروا به، ونُهِوا عنه.

وقيل: هي الصوم، وغسل الجنابة، وما يخفى من الشرائع.

وقال عبدُ الله بن عمرو بن العاص: « الفَرَجُ أمانة، والأذنان أمانة،

والعين أمانة، واليد أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له.»

وفي رواية عن ابن عباس: «هي أمانات الناس، والوفاء بالعهود، فحق على كل مؤمن ألا يفش مؤمناً ولا معاهداً في شيء، لا في قليل ولا في كثير.»

فعرض الله هذه الأمانة على أعيان السماوات والأرض والجبال

فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة بما فيها؟<sup>(1)</sup>

قال: إن أحسنن جوزيتن، وإن عصيتن عوقبتن.

قلن: لا يا رب؛ نحن مسخرات لأمرك، لا نريد ثواباً ولا عقاباً.

وقلن ذلك؛ خوفاً وخشية، وتعظيماً لدين الله تعالى؛ لئلا يقوموا بها،

لا معصية ولا مخالفة لأمره.

وكان العرض عليهن تخييراً لا إلزاماً، ولو ألزمهن لم يمتنعن عن

حملها، والجمادات كلها خاضعة لله - تعالى - مطيعة لأمره ساجدة له.»

من هنا نستطيع أن ندرك معنى الأمانة وحقيقتها، ودلالة عرضها

على السماوات والأرض والجبال، وإبائهن وإشفاقهن من حملها، وأنها

عامة شاملة، ليست وفقاً على فرد من أفرادها.

فلتقف على صفات الراعين لها، والقائمين بها.

فإن ذلك يُعين على فهم دلالتها في واقع.

في سورة "المؤمنون" عشر آيات، نرى فيها كيف أصبح أداء الأمانات

خُلُقاً، وكيف كان الوفاء والجزاء.

(1) وهذا قول جماعة من التابعين وأكثر السلف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾

وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾

إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾

فَمَنْ أَتَّبَعِي وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾

أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ ﴿١﴾

لقد سئلت السيدة عائشة - رضي الله عنها - عن خلق رسول الله ﷺ:

فقالت - رضي الله عنها -: « كان خلقه القرآن » ﴿٢﴾

ثم قالت لمن سألها: « تقرأ سورة المؤمنين ؟ »

(1) المؤمنون: ١-١٠.

(2) أحمد: ٩١/٦، رقم ٢٤٦٤٥. وهو حديث صحيح.

« اقرأ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (1) حتى بلغ العشر ».

فقالت: « هكذا كان خلق رسول الله ﷺ ».

وكل ما تضمنته الآيات أمانات، وقد أجملت فوفت.

وجاءت الآية الثامنة ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (2)

جامعة لكل ما يتحمّله الإنسان من أمر الدين والدنيا.

فالأمانة ما يؤتمنون عليه، والعهد ما يعاهدون عليه، من جهة الله -

سبحانه - أو من جهة عباده.

وجاء الجزاء في خاتمة الآيات: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ (3) الَّذِينَ

يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (2) بأسلوب الحصر الذي ينبئ عن

خصوصية هؤلاء بهذا الجزاء، وأنّ الفلاح قد تحقق لهؤلاء.

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ (3) أي: الأحقّاء بأن يُسموا بهذا الاسم دون

غيرهم.

ثم بيّن الموروث بقوله: ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ﴾ وهو أوسط

الجنة، كما صحّ تفسيره بذلك عن رسول الله ﷺ (3).

والمعنى: أن من عمل بما ذكر في هذه الآيات، فهو الوارث الذي

(1) المؤمنون: ١.

(2) المؤمنون: ١٠، ١١.

(3) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « ... إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أَرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ » البخاري: كتاب الجهاد.

يَرِثُ مِنَ الْجَنَّةِ ذَلِكَ الْمَكَانَ ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾

﴿هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ قال: «يرثون مساكنهم ومساكن إخوانهم، التي أعدت لهم لو أطاعوا الله».

وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَبِّ إِلَيْهِ مِنْ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ. فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾» (1).

ويدل على هذه الوراثة المذكورة - هنا - قوله تعالى:

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ (2).

وقوله: ﴿تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (3).

ويستفاد من دلالة هذه الآيات من سورة "المؤمنون" ومن أقوال سلفنا الصالح في الأمانة، أن منها ما هو فرائض قد كلف الإنسان بأدائها، ومنها ما هو وسائل جعلها الله للإنسان.

(1) ابن ماجه: كتاب الزهد.

(2) مريم: 63.

(3) الأعراف: 43.

ليس من حق الإنسان أن يستعملها لغير ما خلقت له، فإذا أساء بها ولم يحسن - كما أمر الله - فقد ضيع الأمانة التي ائتمن على حفظها. والإنسان مُطالبٌ أن يحفظ فرجه، وأن يحفظ لسانه، وأن يحفظ جوارحه.

وحفظها - بما أمر الله به أن تحفظ - أمانة.

وهو مستول عن ذلك ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (1)

واستعمالها - في غير ما جعلت له - خيانة.

وسيكون لهذه الأمانات شأن، أي شأن في الحساب والجزاء.

وإذا كان الفرج أمانة، والأذنان أمانة، والعين أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له، كما قال الصحابيُّ الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما -: « فإنها ستشهد على من جعلت لهم فلم يحفظوها، حيث لم يحفظوا الله بها.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصرهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم

(1) الإسراء: ٣٦.

سَمِعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ (1)

الأمانات لا بُدَّ أن تُحْفَظَ، وأن تُصَانَ من أيِّ نوع كانت. وهي أشمل وأكمل ممَّا يتصوَّر كثير من الناس، من أنها مجرد وفاء في موقف طارئ وكفى. إنَّ حقيقتها وجوهرها مُتَّصِل - كُلُّ الاتِّصال - بحقيقة الإيمان. ولا إيمان لمن لا أمانة له. فلا تراها تُفْقَدُ أو تغيَّب في أيِّ شأنٍ من الشئون، صَغُرَ أو كَبُرَ. فالمجلس الذي تجلسه مع الناس أمانة. والكلمة التي تَسْمَعُها أو تقولها أمانة. فلا تحمل إلى الناس ما يُوغِرُ صدورهم، ويوقِعُ الشرَّ بينهم، ولا تقبل إلا ما يرضاه ربُّك، فأنت مؤاخَذ بما تتكلم به. معاملتك كلها أمانة. في أخذٍ أو عطاء، أو وعدٍ أو عهد، أو بيعٍ أو شراء. وما أكثر ما تُهدَرُ الأمانات في البيع والشراء، والأخذ والعطاء. والويلُ لمن لم يَرعِ الأمانة في كُلِّ ذلك.

(1) فصلت: ١٩ - ٢٤.

﴿ وَيَلُّ لِلْمُطَفِّينَ ﴿٦١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٦٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٦٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٦٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ۞ (1)

في الحديث المتفق عليه، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنهما - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا:

إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ.

وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ.

وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ.

وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ. » (2)

وفي كُلِّ ذلك ضياع للأمانة، إذا خَانَ، وإذا كَذَبَ، وإذا غدر، وإذا فَجَرَ.

إذ من الأمانة أن تَفِي، وأن تصدق، وأن تُحَفَظَ ما تُحَفَظُ به الأمانة، من قلبك ولسانك.

إن الأمانة رَحِمٌ لا بد أن توصل في كل شيء ولا تُقَطع.

والأرحام تُوصل وإن قُطعت.

وأنت مطالب أن تَصِلَ بالأمانة مَنْ خَانَ أَوْ غَدَرَ.

(1) المطففين: ٦-١.

(2) البخاري: كتاب الإيمان.

« وما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تتقى الله فيه » كما قال عمر - رضي الله عنه - .

وهل كان كفاراً مكة واصليين وهم يدبرون قتل رسول الله ﷺ ويمكرون؟

هل كانوا واصليين وهم يُخرجون أصحابه من ديارهم وأموالهم؟ ومع ذلك وجدنا الرسول الكريم ﷺ يأمر ابن عمه علياً - رضي الله عنه - أن يبيت مكانه؛ ليردّ الودائع والأمانات إلى أهلها. إنَّ الأمانة رَحمٌ لا تُقَطَع. تصِل بها من أحسن إليك أو أساء، ومن صادق أو عاداك

وتعال معي لنرى أين تقف الأمانة؟ ومع من تقف؟ ومتى يكون موقفها هذا؟

إنها تُرسل مع الرَّحم، فيقومان جنبتي الصراط، يميناً وشمالاً يوم يجمع الله الناس بعد البعث بأرض المحشر.

كما جاء فيما رواه مسلم عن حذيفة وأبي هريرة - رضي الله عنهما -:  
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

« يَجْمَعُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزَلَّفَ (1) لَهُمُ الْجَنَّةُ.

فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ.

فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُم مِّنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ؟!»

(1) أي تقرب.

لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ.  
 قَالَ: فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ. اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ،  
 الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكْلِيمًا.

فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى  
 كَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحِهِ.

فَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ.  
 فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُومُ، فَيُؤَدِّنُ لَهُ.  
 وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحْمُ فَتَقُومَانِ جَنبَتِي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا «  
 ماذا تطلب الأمانة؟ وماذا تطلب القرابة "الرحم"؟  
 إِنَّ الرَّحْمَ تَطْلُبُ صِلَتَهَا شَرعًا.

والأمانة تطلب حقها، وهما يقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً.  
 وانظر ما يؤول إليه أمر الناس، وماذا يكون عليه حالهم بالنسبة  
 لصيلة الرحم ورعاية الأمانة.

يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: « وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحْمُ، فَتَقُومَانِ جَنبَتِي الصِّرَاطِ يَمِينًا  
 وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوْلَاكُمْ كَالْبَرْقِ »

قَالَ: قُلْتُ: يَا بِي أُنْتَ وَأُمِّي، أَيُّ شَيْءٍ كَمَرُ الْبَرْقِ؟  
 قَالَ: « أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ  
 كَمَرُ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرُ الطَّيْرِ وَأَشَدُّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ،  
 وَبَيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ.

حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ، فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا

زَحْفًا. وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيْبُ مُعَلَّقَةٌ، مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أَمِرَتْ بِهِ.

فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ<sup>(1)</sup> فِي النَّارِ

وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ، إِنَّ قَعَرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيْفًا<sup>(2)</sup>

رَبِّ سَلَمٍ، رَبِّ سَلَمٍ، رَبِّ سَلَمٍ

أرأيت - أخي القارئ - قَدَرَ الأمانة وخطرَها ؟

أرأيت مع مَنْ وقفت على جنبتي الصراط ؟

أرأيت أَنهَا رَحِمٌ - فِي جميع شئون الحياة - تُوصَلُ وَلَا تُقَطَعُ ؟

أرأيت كيف تُطالبُ بحقِّها، وكيف يُؤخَذُ مَنْ فرَطَ فيها ؟

أرأيت لِمَ كان الإنسان ظلومًا جهولاً ؟

"ظَلُومٌ" إِذْ لم يلتزم القيام بحقِّ ما حَمَلَ. وفي ذلك ظُلْمٌ لنفسه.

"جهولٌ" بقَدْرِ الأمانة التي التزم بها، ودخل فيها.

اللهم إنا نسألك العَوْنَ على أنفسنا، كما نسألك النصرَ على

أعدائنا.

\*\*\*

(1) المكدوس: المدفوع من ورائه.

(2) مسلم: كتاب الإيمان.

obeikandi.com

# ظلم الإنسان لنفسه



obeikandi.com

## ظَلَمُ الْإِنْسَانِ

### لنفسه

ظَلَمُ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ، مِنْ أَيْنَ يَأْتِي؟ وَكَيْفَ يَكُونُ؟

وَكَيفَ يَنْجُو الْإِنْسَانُ مِنْ ظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ؟

وَفِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَرَى إِسْنَادَ ظُلْمِ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ،

فَمِنْ أَيْنَ يَأْتِي هَذَا الظُّلْمُ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ؟

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (1).

كثيراً ما يُصْنَعُ الْإِنْسَانُ بِهَوَاهُ، وَيُؤْخَذُ بِتَدْبِيرِهِ.

وَمِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ يَكُونُ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ، وَتَكُونُ هَزِيمَتُهُ وَيَكُونُ نَصْرُهُ.

وَمَا تُكْنُهُ الصُّدُورُ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (2) أَلَا

يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (2).

وَمَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ مِنْ تَغْيِيرٍ أَوْ تَغْيِيرٍ يَنْبَنِي عَلَيْهِ مَا يَصِيبُ النَّاسَ مِنْ

نِعْمَةٍ أَوْ نِقْمَةٍ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا

(1) يونس: ٤٤.

(2) الملك: ١٣، ١٤.

بأنفُسِهِمْ<sup>١</sup> وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ (1)

ولله في خلقه سُنَنٌ لا تتبدل ولا تتحول.

مَضَتْ فِي السَّابِقِينَ، وتمضي في اللاحقين.

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ<sup>٢</sup> فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا<sup>٣</sup> وَلَنْ

نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا<sup>٤</sup> ﴾ (2)

ومن هنا وَجِبَ على الإنسان أن يعرف سُنَنَ رَبِّهِ.

وأن يحاسب نفسه، وأن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما

أخطأه لم يكن ليصيبه.

وأن يؤمنَ بذلك إيمانَ المستبصر المستتير، الذي يُوقِنُ أَنَّ الْقَدَرَ لَا

يظلم الناس، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

وَأَنَّ الَّذِينَ يُعَلِّقُونَ كُفْرَهُمْ وَجُحُودَهُمْ وَظَلَمَهُمْ عَلَى الْأَقْدَارِ،

كاذبون، يقولون ما لا يعلمون.

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ<sup>٥</sup> مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا

تَكْرُؤُونَ ﴿٥٤﴾ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٥٥﴾ (3)

إِنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدْرِ - خَيْرِهِ وَشَرِّهِ - أَصْلٌ مِنْ أَصُولِ الْإِيمَانِ، لا يكون

المؤمن مؤمناً إلا به.

(1) الأنفال: ٥٣.

(2) فاطر: ٤٣.

(3) الزخرف: ٢٠، ٢١.

ونعم الإيمان بالقدر وهو يحفظ الإنسان من أسي مُقْعِرٍ أو بَطَرٍ مُهْلِكٍ.

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾<sup>(1)</sup>.

وهؤلاء الذين يحتجّون بالقدر يحتجّون به عندما يُسيئون، وعندما يحسنون - إن هم أحسنوا - ينسبون الإحسان إلى أنفسهم.

هؤلاء قد اتّخذوا القدر - كما يُقال - شماعةً يُعلّقون عليها هزائمهم وضعفهم وتخلّفهم وذُلّهم وهوانهم وسوءَ حالهم.

ومثل هؤلاء قد اتّخذوا القرآن مهجوراً.

ولو اعتصموا به لعلموا أنّ القرآن الكريم لم يدع الناس يتحيّرون في سبب ما يأتيهم من هزيمة، أو يحيط بهم من خذلان.

لم يدعهم يقولون متعجّبين: « أتى هذا » أي: من أين لنا هذا الخذلان ونحن مسلمون ورسول الله فينا.

بل أمر رسول الله أن يقول لهم: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾<sup>(2)</sup>

يقول ذلك لمن؟

للصفوة الكرام من أصحاب الرسول ﷺ، وهم من هم في طهرهم وصدقهم وحسن بلائهم، واستجابتهم لله وللرسول.

ولم يقل لهم في هذا المقام: « هذا ما قدره الله لكم » لأنّ خطأ منهم قد وقع، فلا بُدَّ أن يتحمّلوا نتيجة، ولا يعتذروا بالقدر وهم يعلمون

(1) الحديد: ٢٣.

(2) آل عمران: ١٦٥.

أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ نُصْرَتِهِمْ.

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ (1)

فحين قالوا متعجبين: ﴿ أَنَّى هَذَا ﴾ ؟

أجابهم بما يعلمون به من أَنَّ ما عند الله لا يُطلب إلا بطاعته.

فإنَّ ما وقع بكم من عند أنفسكم، أي أَنَّ خُدَّانكم أتاكم من

معصيتكم رسولكم، ومَنْ عصى الرسول فقد عصى الله.

تركتم ما أمركم به فخُدَّلتكم، وجازاكم الله بما فعلتم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذا ما قاله الله للصفوة الكرام البررة في آية تُتلى على الناس

ليعلموا أَنَّ ذنوبهم أخوف عليهم من عدوهم.

وأَنَّهُم لن يستطيعوا أن ينصروا الله في معركةٍ حتى ينصروه في

أنفسهم، بتغليب أمره على هواهم.

وما لم ينتصروا بفضلهم، لم يغلبوا بقوتهم.

وسُننَ الله لا تُجاملُ أحداً ولا تُحابي.

﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ - (2) أَيًّا فاعله، ولو كان ابنَ نبيٍّ ورسولٍ.

وقد رأينا الصحابة الكرام في مثل هذا الموقف لا يعتذرون بالقدر.

وإنما رأيناهم بعد ذلك يتَّهمون أنفسهم، ويحذرون المخالفة والمعصية

(1) آل عمران: ١٢٦.

(2) النساء: ١٢٣.

في جميع أعمالهم، ويعرفون متى يقولون: « قدر الله، وما شاء فعل ». ولا يخلطون بين ما قدره الله نتيجة أعمالهم، وبين ما قدره فيما لا دخل لهم فيه.

فأفادوا من إيمانهم بالقدر - في جميع أعمالهم -: قوة وعزة وكرامة، ورضي عن الله في جميع الأحوال، واتهاماً لأنفسهم إذا أبطأ النصر أو غاب عنهم.

وكان عمر بن الخطاب - وهو يعلم أن معاصي الإنسان هي التي تدمره، وأن ذنوبه هي التي تأخذه - كان يقول - إكراماً لنفسه -: « رحم الله امرءاً أهدى إلي عيوبي ».

وذلك من فقه القرآن، الذي ذكرهم بما وقع بالأمم من قبلهم، وحثهم أن يكونوا مثلهم.

فإن ما حاق بهم كان من ظلمهم لأنفسهم.

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (1).

والأرض تُنبئ عما وقع فيها وما حل بمن شيدوا بُنيانهم، وفقدوا إيمانهم، فظلموا أنفسهم وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعا.

(1) العنكبوت: ٤٠.

﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴾ (1)

فإصلاح النفس وسلامتها - مما يُنقصها أو يسيء إليها - هو الأصل  
فيما يُرجى لها من حسن عاقبة ومصير.

فإنَّ من ظلم الإنسان لنفسه أن يُشغَلَ بعيوب الناس عن عيبه.

ومن الظلم لها أن يُرضيها بتحقيق الرغائب، ويُردئها بسوء العواقب.  
والنفس راغبة إذا رغبت.

راغبة في المال والمتاع..

راغبة في المديح والثناء..

راغبة في دنياها، غافلة عن عاقبتها وأخراها.

فإذا جاء من يمدحها - وهذا حالها - فإنه لم يُحسن إليها، بل أساء.

ومن المدّاحين - في دنيا الناس - من يجب أن يُحْتَى في وجهه التراب،

كما أمر رسول الله ﷺ (2).

ويكفيك أن تدعو بالخير لمن أحسنَ إليك، وأن تشكره على ما

قدّم إليك « ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله » (3).

ولكن الحذر - كل الحذر - من ناسٍ يعرفون ضعف النفس،

وحاجتها إلى من يُعينها على مرضات ربّها، ثم يأتون ليكونوا عوناً

(1) غافر: ٢١.

(2) عن المقداد - رضي الله عنه - قال: « أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المدّاحين  
التراب » الترمذي: كتاب الزهد، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(3) الترمذي: كتاب البر والصلة، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

للسيطان عليها.

وهؤلاء لو رأهم عمر - رضي الله عنه - يهدون إليه المديح والثناء، لكافأهم على ذلك بالدرّة فوق رؤوسهم.

لأنّ العاقل لا يستخفّ بمديح أو ثناء، وهو في حاجة إلى غير ذلك.

في حاجة إلى المعاونة على الإحسان، والدعوة إليه.

في حاجة إلى من يبصره بعيبه، ويُعينه على التخلص منه.

لهذا رأينا عمر - رضي الله عنه - يدعو بالرحمة لمن أهدى إليه عيبه.

واعتبر ذلك هديّة تُهدى إليه، يكافأ من أهداها بأكرم ما يُرجى.

ويطلب له الدعاء برحمة الله.

إنّ عمر - رضي الله عنه - في ذلك يعلمنا من أين يأتي ظلم الإنسان

لنفسه، وكيف يحفظها.

ظلم الإنسان لنفسه يأتيه من غروره بها، وغفلته عن حقيقتها، وفخره

بزينتها ومتاعها، وفتته بما ابتليت به من مال وأولاد، أو منصب وجاه.

كذلك الذي دخل جنّته وهو ظالم لنفسه، ظلمها بسوء ظنّه أنّ ما

أعطاه الله في دنياه - امتحاناً واختباراً - باقٍ لا يبيد.

وقال - في فخر واختيال -:

﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ حَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾ (١)

(١) الكهف: ٣٥، ٣٦.

هذا الغرور الأبله، وهذا الظن الفاسد، لم يَفِقْ صاحبه بنصح أو إرشاد، وإنما أفاق عندما أحيط بثمره.

عندئذ وقع الندم، وجاءت الحسرة بعد فوات الأوان.

﴿ وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ

عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ (1).

﴿ يَا لَيْتَنِي ﴾ قالها متى ؟

بعد أن دُمِرَت جنته التي اعتزَّ بها، وركن إليها، وأعطائها صفة الدوام والبقاء؛ ناسياً أن البقاء لله وحده. وذلك موطنُ ظلمه لنفسه.

وهو أصلُ كلِّ ظلمٍ يقع بها ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (2)

ولا أَمْنٌ إِلَّا لِمَن بَرَّئَ مِنْهُ، وآمَنَ، ولم يلبس إيمانه بشيء منه.

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ

مُهْتَدُونَ ﴿٤٣﴾ (3).

هكذا على الإطلاق مهتدون في ذاتهم..

مهتدون إلى أسباب الأمن وحقيقته.

(1) الكهف: ٤٢.

(2) لقمان: ١٣.

(3) الأنعام: ٨٢.

مهتدون إلى كل ما يُصلح شأنهم، ويُبعد الشرَّ عنهم.  
ذلك أنهم آمنوا بالله، ولم يلبسوا إيمانهم بشركٍ ظاهر أو خفي.  
فإنَّ الشركَ مدمرٌ لأهله.

ومَن ظَنَّ أنَّ الشركَ ينحصر في صنمٍ يُعبدُ وكفى، قد يقع في  
الشرك وهو لا يدري أنَّ الشرك قد يُرى في كل عبوديته لغير الله.  
وفي الناس من تراه عبداً للدرهم والدينار. عبداً للمنصب والجاه.  
يُعطي لمن يُعبد صفاتٍ لا تُعطى إلاَّ لله، من: الاعتزاز به، والركون  
إليه، والإخلاص له.

كذلك الذي دخل جنَّته وهو ظالمٌ لنفسه.  
وكمَن وصفهم الرسول ﷺ، ودعا عليهم حين قال:  
« تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ، وَعَبْدُ الحَمِيصَةِ (1) إِنْ أُعْطِيَ  
رَضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعَسَّ وَأَنْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا أَنْتَقَشَ (2) » (3)  
أي: هلك طالبها، الحريص على جمعها، القائم على حفظها.  
فكان لذلك عبداًها.

وكم من أهواء للناس تُتخذ آلهة من دون الله !  
وفي ذلك من ظلم النفس ما فيه، ممَّا لا يمكن حصر نتائجه  
وويلاته في حياة الناس وروابطهم.

(1) نوع من الثياب.

(2) أي إذا أصابته الشوكة لم يجد من يخرجها بالمقاط.

(3) البخاري: كتاب الجهاد.

والظلم الذي يأتي للإنسان من هوى نفسه، هو الظلم الذي تتعدد آثاره، وتفحش نتائجه.

فمن تسلط عليه هواه لا يُبالي بما يقع فيه من ظلم الناس وإساءتهم. لأنَّ الهوى مُضِلُّ مُفسِد، يدعو الإنسان أن يحقق مآربه من أيِّ طريق كان، دونَ نظرٍ لحلال أو حرام. وعندئذٍ يكون الظلمُ ملازماً لنفسه حين يتخذ إلهه هواه.

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (1)

وعندما ينسى الإنسان الأمانة التي حملها، أو يجهل حقيقتها، لا يكون ظالماً لنفسه فحسب، بل يكون ظلوماً جهولاً. وقد مرَّ عليك - من قبل - حقيقة الأمانة ودلالاتها. وأنَّ ما ضاع من أمنِّ الناس إنما ضاع بضياعها. ولا ينجو الإنسان من هلع إلاَّ بأداء الأمانة، والاتصاف بصفات أهلها ولا ينجو من ظلم نفسه إلاَّ بالتخلص من العبودية لغير ربه. وعندئذٍ يكون هواه تبعاً لطاعة ربه واتباع نبيه. وذلك يستوجب حمل النفس على الجادة، بأن لا يدعها تلهث وراء الرغائب، وتنسى النتائج والعواقب.

يستوجب أن يحملها - حملاً - على الصدق في كل شيء، دون خداع

(1) القصص: ٥٠.

لها، بحيث توقن أن ظلمها لغيرها ظلمٌ لها، تحمله يوم القيامة وزراً. عندئذٍ تفعل الخير بفطرة لا تكلف فيها. وتكف عن الشر، وهي تعرف عاقبته ومغيبته. فإن كل ما تفعله من شرٍ ظلمٌ لها، و«الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(1)</sup> واستحضار العواقب - في كل شأن - يُعين على تحسين البدايات في كل شيء.

ولا ينجو الإنسان من سوء العواقب إلا حين يُبصر المقدمات بثورٍ من ربه؛ حتى يسلم من موات النفس، ويخرج من الظلمات.

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾<sup>(2)</sup>

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(3)</sup>

لا يستوي هذا وذاك، كما لا يستوي مُحسنٌ ومُسيءٌ، ومُفسدٌ ومُصلحٌ، وظالمٌ لنفسه ومُكرمٌ لها، بإبعادها عمَّا يهينها من الدنيا، وقول الزور، وأن ينأى بها عن سفاسف الأمور؛ فإنَّ الله - تعالى - يُحبُّ معالي الأمور، ويكرهُ سفاسفها «

(1) البخاري: كتاب المظالم.

(2) النور: ٤٠.

(3) الأنعام: ١٢٢.

وما يُحبه الله - من قولٍ أو عمل - يرفعه إليه.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (1)

وإذا كان لكل شيء عاقبته، ولكل عمل جزاؤه.

فإن من ظلم غيره فإنه سيرى في العاقبة أنه قد ظلم نفسه بظلم غيره. يوم تؤدَّى الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، ويرى الناس أن « مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ، طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ » (2) كما جاء في الحديث المتفق عليه، عن عائشة - رضي الله عنها -.

فلا يغترنَّ أحدٌ بإملاءٍ لظالم؛ فإنَّ « اللَّهُ لِيُمْلِيَ لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » (3)

قال ﷺ: « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ » (4) اليومَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدَرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ » (5)

ذلك هو السبيل للتخلص من نتائج الظلم هنا قبل الوصول به هناك. لا بُدَّ من التحلُّل من ظلم الناس بعبءٍ أو أداء حق.

(1) فاطر: ١٠.

(2) البخاري: كتاب المظالم.

(3) البخاري: كتاب التفسير.

(4) أي يطلب منه أن يسامحه ويعفو عنه.

(5) البخاري: كتاب المظالم والغصب.

وأما مَنْ ظلم نفسه بمعصية ربّه. فالسبيلُ لطلب العفو والمغفرة، هو الإسراع بالتوبة والعمل الصالح.

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (١)

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٣)

كثيراً ما يستهين الإنسان بحقوق الآخرين، وينسى أنّ العواقب ستأتي باليسير والكبير ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ حَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴾ (٣)

قال ﷺ: « مَنْ اقْتَطَعَ (٤) حَقَّ امْرِئٍ مُّسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِن كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

(١) طه: ٨٢.

(٢) آل عمران: ١٣٥، ١٣٦.

(٣) الأنبياء: ٤٧.

(٤) أي امتلك حق أخيه المسلم ظلماً بالحلف الكاذب.

قَالَ: « وَإِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكَ <sup>(١)</sup> » <sup>(٢)</sup>

وَكَمَ مِنْ نَاسٍ يُؤَدُّونَ الْفَرَائِضَ هُنَا فِي الدُّنْيَا، مِنْ صَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، ثُمَّ يُضَيِّعُونَهَا بِظُلْمٍ غَيْرِهِمْ، وَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُفْلِسِينَ.

وَقَدْ نَبَّهَ الرَّسُولَ ﷺ عَنْ ذَلِكَ؛ حَتَّى لَا يَسْتَهِينُ أَحَدٌ بِحَقِّ غَيْرِهِ. فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

قَالَ: « أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟ »

قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعًا.

فَقَالَ: « إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ. وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ - قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ - أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » <sup>(٣)</sup>

أَلَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ ظَالِمًا لِنَفْسِهِ ظُلْمًا فَوْقَ ظُلْمٍ، إِنْ هُوَ ضَيِّعَ مَا كَانَ

يُرْجَى لَهُ مِنْ خَيْرٍ، وَبَقِيَ مُفْلِسًا فِي مَوْطِنٍ لَيْسَ فِيهِ كَسْبٌ وَلَا عَمَلٌ؟

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ <sup>(٤)</sup>

\*\*\*

(١) نوع من الشجر يُتخذ منه السواك.

(٢) مسلم: كتاب الإيمان.

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والأدب.

(٤) الروم: ٥٧.

ماذا يعني قصص القرآن  
بالنسبة للإنسان ؟



obeikandi.com

## ماذا يعنى قصصُ القرآن

### بالنسبة للإنسان ؟

لا شيء أكرم بالإنسان وأبرُّ به من مخاطبته بالحقِّ، وإفادته منه. ذلك أنَّه خطابُ الفطرة التي فَطَرَ اللهُ الناسَ عليها، وإنَّ مآلَ الناسُ أو حادوا عنها.

ومن أجل الخطاب بالحق ودعوة الناس إليه، أرسل الرسل، وأنزل الكتاب؛ ليظل نداءُ الفطرة قائماً في حياة الناس، تستيقنه نفوسهم وإن جحدوا به.

والقصص بعامة - وهو مُحبَّبٌ للنفوس - قد يأتي من قِبَلِ الناس، ويكون فيه ما فيه من متعةٍ لقارئٍ أو مستمع.

ولكن قد يساق بحق أو بباطل.

وقصصُ القرآن - بخاصَّة - لا يُقصُّ إلا بالحق.

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ (1)

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ (2)

﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ (3)

وفي التقييد بالحق دليلٌ على أنَّ نَبَأَهُمْ قد يُقصُّ بين الناس، ولكن

(1) آل عمران: ٦٢.

(2) الكهف: ١٢.

(3) القصص: ٢.

لا بالحق.

والفرق بين قصصهم بالحق وبغير الحق بعيد الأثر والنتائج.  
ذلك أن القصص بغير الحق لا ترتبط النفس به، ولا تتأثر إلا بمقدار  
سماح ما فيه، مما تستطرفه النفس أو تتلهى به.  
ولكن القصص بالحق يحمل للناس سُنناً ماضية في الخلق، وعبرة  
دائمة، وعظة لمن اتعظ واعتبر.

ومن جهة أخرى فإن الحديث بالحق عن ناس مضوا في الزمان  
الغابر، لا يملكه ولا يستطيعه إلا من أحاط بكل شيء علماً.  
فإذا جاءنا عن طريق الوحي، وجب السماع له، والإفادة منه.  
أمّا حديث البشر عن الماضي ففيه قصورهم، واختلاف تخيلهم،  
وتباين أغراضهم ونيّاتهم، ولا يخلو الأمر من تزوير أو انتقاص من صاحب  
هوى أو خيال.

فقصص القرآن هو الحق، وللدعوة إلى الحق.  
حق في ذاته.. وحق في حكمته وغايته.  
وإذا كان هذا القصص هو الحق، فلا غنى للإنسان - بحال - عن  
الحق.

والإنسان - كما نعلم - له أحوال وصفات ومراحل.  
من نشأة، وولادة، وطفولة، وشباب، ورجولة، وكهولة.  
وله علاقته بغيره، من: أب، وأم، وزوج، ورحم، وبنين، وبنات.  
له علاقة بما يكون حوله، وما يقع له من غنى وفقر، وشدة

ورخاء، وصحة ومرض، وحياء وموت.

له علاقة بمجتمعة، وما يقع فيه من صراع، وما يكون فيه من حق أو باطل، وعدل أو ظلم، وعلم أو جهل، وهزيمة أو نصر. والإنسان - رجلاً كان أو امرأة - على أي حال كان - له من قصص القرآن دلالة على إحاطة علم بحاله، وبيان حكمة بالغه فيما هو فيه أو عليه.

يرى ذلك في واقع عملي من خلال قصص القرآن. قصص حق وصدق للحياة في جميع صورها.. لا يكاد الإنسان يمرُّ بمرحلة في حياته - منذ نشأته وولادته - إلا ويرى - من قصص القرآن - واقعاً مرَّ بإنسان، أو مرَّ به إنسانٌ. يرى تفصيل كل شيء، وشاهده كأنما يعيش فيه. وهو ينقل لك مشهد الحياة في ماضيها؛ هداية لحاضرها ومستقبلها؛ لتعرف حكمتها وسُننها فيك وفي غيرك.

﴿ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا

أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ (1).

سبحان الله، من أحاط بكل شيء علماً !

إنَّ قصص القرآن - وهو من أنباء الغيب - ما كان لأحدر أن يعلمه، أو يُخبر به خبر حق وصدق، إلا عالم الغيب والشهادة، الذي يُردُّ إليه

(1) يونس: ٦١.

الخلق، فينبئهم بما كانوا يعملون.

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (1).

فلا عجب أن يأتي قصص القرآن مُحيطاً بوقائع الناس وأحوالهم، مع اختلاف أماكنتهم وأزمانهم؛ لأنَّ الذي نبأ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ

مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (2).

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (3).

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا

ذِكْرًا ﴾ (4) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمَلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴾ (5) خَلِدِينَ فِيهِ

وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴾ (4).

هذا القصص للإنسان حيث كان، يرى فيه وقائع ما قد سبق، وهو يُتلى

في كتاب عزيز محفوظ.

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (5)

(1) المائدة: ١٠٥.

(2) هود: ٤٩.

(3) هود: ١٠٠.

(4) طه: ٩٩ - ١٠١.

(5) فصلت: ٤٢.

تُعرف من خلاله سُنن الله في خلقه.

سُننه فيمن آمن بالله واتَّقاه، وفيمن كَذَّبَ بآياته وعصاه.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾<sup>(1)</sup>.

ومن تدبَّرَ قصصَ القرآن يمكنه أن يدرك هذه الحقائق:

### الحقيقة الأولى:

أنَّ هذا القِصص يُريك من أنباء ما قد وقع ما يُغنيك عن طلب عِبرة في غيره. ذلك أنك - على أيِّ حال كُنت - تجد من حال مَنْ أخبرك عنه عِظة لِحَالِك، وبيانا لعاقبة ما تختاره، وأنت ترى العاقبة فيمن سبق من قبلك.

### الحقيقة الثانية:

أنَّك ترى - فيمن قصَّ علينا القرآن نبأهم - الطفلَ الرضيع، والشيخَ الكبير، والرجل والمرأة، والحاكم والمحكوم، والغنى والفقير، والظالم والمظلوم، والصحيح والمريض، والشكور والجعود، وفتية الخير وعُصبة الشرِّ. ترى أباً يعِظُ ابنه، وابناً ينصَحُ والده. ترى زوجةً مؤمنةً، وزوجاً كفوراً. وترى زوجاً صالحاً وامرأةً حُتُوناً. ترى صراعاً بين أخوين، أخاً - من أبناء آدم - يقتل أخاه. ترى قتالاً بين فئتين، فئة قليلة صابرة، وفئة كثيرة باغية، وتعرف من غلب ومن غلب.

فترى ما أخبر الله به واقعاً في أحداث الحياة.

(1) الأنفال: ٤٢.

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾<sup>(1)</sup>

ترى للنسوة كيداً - وكيدهنَّ عظيمٌ - وترى للحقَّ نصراً يبطل به كيد الكائدين، وباطل المبطلين.

ترى تأمر أغنياء على حق فقراء، يتآمرون وهم يتخافتون، ويغيب عنهم أن الله يعلم ما يبيئون.

فترى نعمة الله أسرع إلى جنَّتهم من ذهابهم إليها مُصبحين.

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾<sup>(2)</sup> فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾

فقالوا متحسرين نادمين - لما رأوا جنَّتهم قد احترقت قبل أن يصلوا

إليها -: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾<sup>(3)</sup>

ترى أحداث الحياة كلها في وقائع لا تغيب عنك دلالتها.

الحقيقة الثالثة:

أن قصص القرآن - وهو يذكر العواقب - لوقائع وأحداث وقعت في حياة أمم ماضية، إنما يقدم لنا - بذكر العواقب - سنن الله الباقية، دون نظير لنسب أو زمن أو تاريخ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ

وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾<sup>(4)</sup>

(1) البقرة: ٢٤٩.

(2) القلم: ١٩، ٢٠.

(3) القلم: ٢٩.

(4) البقرة: ١٣٤.

### الحقيقة الرابعة:

أنَّ القصةَ قد تقرأها مجملَةً في سورة، ومُفصَّلَةً في سورة أخرى. كقصة موسى وفرعون - مثلاً - تقرأها مجملَةً في سورة "النازعات" أو غيرها، في كلمات أو أسطر معدودات، وتقرأها مُفصَّلَةً في سورة "طه" وسورة "القصص" وغيرهما، في صفحات متتابعات. ولا استغناء عمَّا جاء من تفصيل، وما وقع من إجمال؛ حيث يكون في التفصيل مقاصد ودلالات.

ولا تكرار في إجمال قصة واحدة وتفصيلها إذا جاءت في سور متعددة من القرآن، مع ما تحمله - في كل موضع - من دروس وعبر وعظات. وهي تتآخى مع آيات السورة التي وردت فيها، وتتسق في أسلوبها ومقاصدها وهدايتها.

وذلك من أبين صور الإعجاز في القرآن الكريم. قصص الأنبياء في القرآن الكريم يجعلك تعيش في واقعهم جميعاً. لا تنفصل عنهم، ولا تُفرِّق بينهم وأنت ترى حقيقة واحدة لا خلاف فيها.

﴿ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾<sup>(1)</sup>

يقولها كلُّ نبيٍّ لقومه.

رسول الوحي إليهم واحدٌ لم يتغير. جبريل عليه السلام رُوح القدس. والحقيقة التي حملها إليهم جميعاً واحدة.

(1) الأعراف: ٥٩.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١)

هكذا - بأقوى دلالات الحصر - يُخبر الله عن حقيقة ما أُرسِلوا به جميعاً، وأُمرُوا به.

دعوتهم واحدة، وسُنن الله جميعاً فيهم واحدة، لا تباين ولا تفاوت، حتى في الكلمات التي يقولونها، أو يقولها أعداؤهم ومكذبوهم.

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ (٢) يقولها كلُّ نبيٍّ لقومه.

﴿ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (٣) يقولها كلُّ مكذبٍ لرسوله.

وكأنما اجتمعوا وتواصوا على ذلك، مع تفاوت الزمان والمكان.

﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾

﴿ اتَّوَصَوْا بِهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴾ (٤)

﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ (٥)

« دينٌ واحدٌ » وصَّى الله به الرسل جميعاً، وأمرهم أن يُقيموه ولا

(١) الأنبياء: ٢٥.

(٢) الأنعام: ٩٠.

(٣) الذاريات: ٥٢.

(٤) الذاريات: ٥٢، ٥٣.

(٥) الإسراء: ٧٧.

يتفرقوا فيه.

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (1)

وهذه الحقيقة قد تغيب على كثير ممن يسمعون الحديث عن الأديان، فيتصورون أن كل نبي قد بعث بدين غير ما بعث به من كان قبله. وهذا التصور خاطئ ومُسيء.

أما إنه خاطئ: فإن الحقيقة أن رُسل الله جميعاً قد بعثوا بدين واحد. وأما أنه مُسيء: فإن التفرقة بينهم تؤدي إلى فرقة في حياة الناس وتؤثر في أمنهم وسلامهم.

لا تفرقة بينهم، ولا خلاف فيما بعثوا به، وأمروا أن يقيموه ولا يتفرقوا فيه.

وهم جميعاً براء من كل من يُنسب إليهم ما لم يقولوه، أو يؤمنوا به. وقصص الأنبياء في القرآن الكريم خطاب للإنسان حيث كان يُعلمه حقيقة الرسالة والرسول، ويُبطل كل ادعاء يخالف ما بعثوا به، وأرسلوا من أجله.

إن قصص الأنبياء في القرآن الكريم جامعة مفتوحة، لا يُغلق بابها، ولا يتوقف عطاؤها.

تجمع بين رُسل الله جميعاً؛ ليقولوا كلمتهم للناس جميعاً مجتمعين.

(1) الشورى: ١٣.

لا تفصل بينهم فواصلُ زمانٍ أو مكانٍ، وسيكون كذلك يوم يقوم الناس لربِّ العالمين.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (1).

وقصصُ الأنبياء يُرينا النتائجَ لِمَن كَذَبَ وَعَصَى، وأدبرَ واستكبر. كما يجعلنا نشاهد حمى الله لِمَن اعتصمَ به، وابتغى رضاه. من قصص القرآن نعلمُ أنَّ مَن حَفِظَهُ اللهُ لا يُضِيعُهُ الناس. وأنَّ المكرَ السيئَ لا يَحِيقُ إلاَّ بأهله. وأنَّ البَغْيَ والنُّكْثَ والمكرَ مِمَّنْ كُنَّ فِيهِ كُنَّ عَلَيْهِ.. كما قال الصُّدِّيقُ - رضي اللهُ عنه -:

«ثَلَاثٌ مَّنْ كُنَّ فِيهِ كُنَّ عَلَيْهِ: البَغْيُ، والنُّكْثُ، والمَكْرُ.»  
وذلك من فقه القرآن، الذي نقرأ فيه حقيقةَ هذا القول، ونرى في قصصه واقعه.

نقرأ في القرآن: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنْ مَّا بَغَيْكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ (2).

وَنَقْرَأُ: ﴿فَمَنْ نَكَّثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ (3).

وَنَقْرَأُ: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (1).

(1) يوسف: ١١١.

(2) يونس: ٢٣.

(3) الفتح: ١٠.

ويكفي الإنسان أن يقرأ من نبا موسى وفرعون ما قصه الله عليه ليرى النتائج، ويدرك الحقائق، ويأخذ من الدلالات ما يثبت به الفؤاد، ويحفظ اليقين، ويُبصر حقائق الدين في واقع، فلا تصرفه الرغائب عن العواقب.

يكفيك أن تقرأ من أوّل سورة "القصص" من الآية {١} إلى الآية {١٣} لترى كيف يَحِقُّ المَكْرُ السيئ بأهله، وكيف يُحَفَظُ مَنْ أَرَادَ اللهُ حِفْظَهُ، وكيف يتحوّل الذين استخفّهم فرعون فأطاعوه.

كيف يتحوّلون من دَبَّاحِينَ إلى خَدَّامِينَ !

ترى وترى.. فانظُرْ - لنفسك - ماذا ترى.

فإنَّ نَبَأَ موسى وفرعون - الذي قصه الله علينا - فيه دروسٌ:

للأغنياء والفقراء..

للحكّام والمحكومين..

للكبار والصغار..

للرجل والمرأة.

قِصَّةٌ تنفذُ إلى أعماق النفس، بما فيها من دلالاتٍ وعبر.

وفي جميعها ترى عملَ القُدرةِ الإلهية، والعلمَ المحيطَ بكل شيء.

فإنَّ هلاك فرعون - ومَن معه - لم يتمّ بجيوشٍ يُصارِعُ بعضها بعضاً.

وإنَّما تمَّ بأخْزٍ من الله، وإهلاكٍ منه.

وفرعونُ في قِمْمَةِ كِبَرِهِ وَصَلْفِهِ، وتسلطه وبغيه.

﴿ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (1)

والمؤمنون - وحدهم - هم الذين ينتفعون بما في هذا القصص من عبر وعظات.

وهو محفوظ بحفظ الله في كتاب عزيز ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۗ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (2)

يُبصِّرُ النَّاسَ وَيُعَلِّمُهُمُ سُنَنَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وما يجب أن يكونوا عليه في جميع شؤونهم، من معرفة الله وخشيته.

وَيُحذِّرُهُمُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ، وهو يُريهم عاقبة الظلم ومصارع الظالمين.

قِصَّةٌ تَرَى فِيهَا الْوَلِيدَ الرَّضِيعَ.

وترى الأم تخشى على رضيعها، في وقت يُذبح فيه كل مولود.

وترى أخت الرضيع تتحرك في هذا الجو المشحون بالرعب والفرع.

وترى آل فرعون وهم يحملون الرضيع إلى امرأة فرعون، ويطوفون

به؛ للبحث عن مريض يقبل تذيها.

ولا يستقرُّون حتى يعود إلى أمه، وهم لا يشعرون.

وترى فرعون - بتدبيره وحرصه وبغيه - خادماً - بملكه - لهذا

الرضيع، وهو لا يدري أن الوليد - الذي خافه على نفسه - يأتيه ليُرَبِّي في

(1) القصص: ٣.

(2) فصلت: ٤٢.

قصره، يُحَفِّظُ برعاية الله، ويصنعُ على عينه..

ونرى امرأةً فرعون في هذه القصة - من بداية أمرها إلى نهايته -  
مثلاً حياً للمؤمنين.

وترى العواقب والنتائج، فيخشع قلبك للحق الذي جاءت به آيات  
ربك، ودعت إليه.

وحيثما كنت، وعلى أي حال كنت، فلك في هذه القصة عظة وعبرة.  
إنها قصة تنفذ - بعيرتها - إلى أعماق النفس، فتتيد الشر قبل أن  
يولد، وهي ترى عاقبته ومصراع أهله.

وتنفذ إلى قلب المستضعفين، فتعلمه كيف يستمسك بمرضاة ربه.  
وهي تريه من مينة الله على المستضعفين في الأرض، فتجعلهم أئمة،  
وتجعلهم الوارثين.

وتنفذ إلى قلب الأم المفزعة بالبغي والظلم والتسلط، فتعلمها كيف  
تلجأ إلى الله، وتعتمص به، وهي ترى أم موسى تحاط بحماية ربانية في  
أشد لحظات الفزع والمكر السيئ، تُطمئن قلبها، وتحفظ وليدها،  
وتعيده إليها؛ لترضعه بأجر وتكريم، وتحول المتسلطين إلى خادمين.

قصة تنفذ إلى قلوب الحكام - حيث كانوا - فتعلمهم أن ما  
بأيديهم يهدده طغيانهم، وتبيده معاصيهم، وتعصف به ذنوبهم، وهم  
بذلك يؤخذون ويهلكون.

قصة تنفذ إلى قلوب المحكومين، فتعلمهم أن طاعة الحكام - في  
معصية الله - تسوقهم معهم إلى البوار والدمار.

﴿ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٦﴾ فَلَمَّا  
ءَاسَفُونَا أُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْفًا وَمَثَلًا  
لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ (1)

قصة نُعَلِّمُ كُلَّ إِنْسَانٍ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْعَوَاقِبِ، فَيُحْسِنَ فِي الْمَقْدَمَاتِ  
وَلَا يُسِيءَ، وَلَا يَقِفْ عِنْدَ الرَّغَائِبِ، فَيُرْكَنُ إِلَيْهَا، وَيَنْسَى سُوءَ عَاقِبَتِهَا.  
قِصَّةٌ تُعَلِّمُ جَمِيعَ النَّاسِ أَنَّ بَسَاطَةَ دُنْيَاهُمْ سَيُطْوِي، وَأَنَّ هُمْ قَادِمُونَ  
عَلَى دَارِ الْبَقَاءِ، وَلَا أَمْنٌ لَهُمْ فِيهَا إِلَّا بِصِدْقِ الْإِيمَانِ وَالِاسْتِقَامَةِ، كَمَا  
أَمَرَ اللَّهُ.

وَإِذَا انْتَهَتْ فِتْرَةُ دُنْيَانَا لَمْ يَبْقَ لِلْإِنْسَانِ فِيهَا إِلَّا مَا تَرَكَ وَرَاءَهُ مِنْ  
ذِكْرِ حَسَنٍ أَوْ قَبِيحٍ.

ذِكْرٌ حَسَنٌ يُذَكِّرُ بِهِ فِي النَّاسِ، فَيَدْعُونَ لَهُ..

أَوْ ذِكْرٌ قَبِيحٌ سَيِّئٌ، فَيَسْخَطُونَ عَلَيْهِ، وَلَا يَذْكُرُونَهُ إِلَّا بِعَمَلِهِ.

لَقَدْ مَضَى فِرْعَوْنُ بِلَعْنَاتِ الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الْآخِرَةِ.

وَطُويَ بَسَاطَةُ مُلْكِهِ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ !

انْتَقَلَ إِلَى مَا ادَّعَاهُ لِنَفْسِهِ ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي

مِنْ تَحْتِي ﴾ (2) انْتَقَلَ إِلَى مَنْ اسْتَخْلَفَهُمُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ؛ لِيَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلُونَ.

(1) الزخرف: ٥٤ - ٥٦.

(2) الزخرف: ٥١.

وسينتهي ميراث الأرض ومن عليها لله الواحد القهار.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (1).

وبقيت امرأة فرعون - بذكرها، وطيب سيرتها، وصدق إيمانها -  
مثلاً للمؤمنين.

أمّا موسى الوليد الرضيع، الذي استهدفه فرعون من قبل ولادته،  
فقد حفظه الله ورعاه، وألقى عليه محبة منه، وصنعه على عينه، واختاره  
- بعد بلاء وتمحيص - ليكون رسولاً من أولي العزم من المرسلين.  
والقرآن المجيد يُرينا كلّ ذلك؛ لنعلم ما للحق من ثبات وبقاء، وما  
للباطل من غناء وجفاء.

حتى لا يركن أحدٌ إلى باطل، أو يستبطئ أحدٌ نصرة حق.  
فإنّ الله لا يعجل بعجلة أحد، والباطلُ زاهق، لا محالة.  
ومن اتّبعه زهق معه.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (2).

\*\*\*

(1) مريم: ٤٠.

(2) الزمر: ٢٧، ٢٨.

obeikandi.com

الإنسان علم بالقرآن  
ما لم يكن يعلم



obeikandi.com

## الإنسان علم بالقرآن

### ما لم يكن يعلم

أ - علم الإنسان بالقرآن حكمة خلقه، وغاية وجوده.

فإن الله لم يخلق شيئاً عبثاً أو باطلاً.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ ﴾

﴿ قَوْلٍ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن النَّارِ ۗ ﴾ (1)

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۗ ﴾ فتعالى

اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۗ ﴾ (2)

والذين يتصورون أنهم يعملون ما يشاءون في دنياهم بلا حساب أو جزاء، أو أنهم متروكون سدى، يموتون ولا يرجعون، لا يخطئون فحسب، بل يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

إن حكمة الخلق تأبى أن يخلق الإنسان لدنياه، ولا يسأل عمَّا قدّمت يداها.

تأبى أن تكون دنيا بلا آخرة، ومقدمة بلا عاقبة، وعمل بلا جزاء.

تأبى أن يسوّى بين مفسد ومصلح، ومؤمن وجاحد.

فلا بدّ من يوم يقوم الناس فيه - جميعاً - لربّ العالمين.

(1) ص: ٢٧.

(2) المؤمنون: ١١٥، ١١٦.

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ (1).

وبذلك تتضح حكمة الابتلاء التي خلق لها الإنسان، وجعل ما على

الأرض زينة لها.

إنها فترة محدودة للخلق وللزينة، يُجعل كلُّ شيءٍ بعدها حصيداً

كأن لم يَغْنَ بالأمس.

وعندئذٍ يجد الناسُ كلَّ ما عملوه حاضراً في عاقبة ومصير.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِّنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ

أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٦﴾ (2).

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿١١﴾ (3).

خلق الله الموت والحياة؛ للابتلاء والامتحان.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ

الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ (4).

وخلق الله الأرض، وجعل ما عليها زينة لها؛ للابتلاء والامتحان.

(1) المجادلة: ٦.

(2) آل عمران: ٣٠.

(3) الكهف: ٤٩.

(4) الملك: ١، ٢.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾  
وَأِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾. (1)

بَلْ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ - وهما أكبرُ من خلقِ الناسِ - لِيَبْتَلِيَ  
الناسَ بما يُخاطَبونَ به، من موتٍ وحياة، وبعثٍ وحساب، وجزاء، وجنةٍ أو نار.  
وفي الأرضِ آياتٌ، وفي السماءِ آياتٌ تبصَّرُ وتُذَكَّرُ.

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى  
الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّا لَنُكْفِرُكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ  
لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾. (2)

مع الابتلاء يعلم الناسُ بأنفسهم عن أنفسهم من أحسنِ ومن أساء -  
واللهُ أعلمُ بهم - ويكون الحسابُ والجزاءُ على ما وقع من عملٍ عدلاً  
ووفاءً - جزاءً وفاقاً.

وبذا لا يكون للباطل ولا للعبث دَخْلٌ في عملِ الإنسانِ وجزائه.  
ولا موضعٌ له في فهمه واعتقاده، بعد بلاغٍ وإنذار.  
وجزاء الإنسانِ على ما قدَّمت يداه. ومصيره مرتبطٌ بما قدَّم من خيرٍ  
أو شر. ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾. (3)

(1) الكهف: ٧، ٨.

(2) هود: ٧.

(3) الزلزلة: ٧، ٨.

وعندئذ لا يستوي محسنٌ ومسيءٌ، ومؤمن ومفسدٌ، ومُتَّقٍ وفاجرٌ، في عاقبة ومصير، كما لم يستو هؤلاء في بيان ما جاء به الكتاب وذكر به، فأعذر وأنذر.

﴿ أَمْ جَعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ ﴿ ٢٨ ﴾ كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿ ٢٩ ﴾ (١).

بالقرآن علّم الإنسان حكمة خلقه وغاية وجوده.  
وأنه ما خلق إلا ليخلص في عبادة ربه

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ﴿ ٥١ ﴾ (٢)

وقد يجهل الناس أبعاد هذه الحقيقة، أو يحصرونها في أضيقة صورة، من شعائر دينهم، أو عمل دنياهم.  
وهم بذلك يُخطئون ويُسيئون.

إنّ ما خلقهم الله له لا يُحصر ولا يُحدُّ بأهوائهم وشهواتهم.  
فإنّ الحقّ - في تحديد ما خلقوا له، من الإخلاص في عبادة ربه، وعدم الإشراك به - لا يكون إلا من الله عزّ وجلّ.

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ (٣).

(١) ص: ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) الذاريات: ٥٦ .

(٣) المؤمنون: ٧١ .

وَلَمْ أَرْ شَيْئاً ظَلِمَ فِي حَيَاةِ النَّاسِ كَمَا ظَلَمْتَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، حِينَ  
حُصِرْتَ فِيمَا يَهْوَاهُ النَّاسُ، لَا فِيمَا يَرْضَاهُ اللَّهُ.

عبادةُ الله لا تفارقُ شيئاً من سَعَى الإنسان على الإطلاق.

لا تُبَارِحْ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ.. سِرَّهُ وَعَلَنَهُ... قَوْلُهُ وَفَعَلَهُ.

لا تُبَارِحِ الْفَرْدَ، وَلَا الْأُسْرَةَ، وَلَا الْأُمَّةَ، وَلَا الْمَجْتَمَعَ الْإِنْسَانِي فِي  
رَوَابِطِهِ وَتَعَامُلِهِ، وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شَأُونِهِ.

وَاعْجَباً حِينَ تُحْصِرُ هَذِهِ الْعِبَادَةَ فِي رَكَعَاتٍ وَسَجَدَاتٍ، أَوْ فِي  
صِيَامِ سَاعَاتٍ، أَوْ دَفْعِ زَكَوَاتٍ قَدْ تَضَيَّعَ كُلُّهَا فِي ظُلْمٍ أَوْ بَغْيٍ وَإِسَاءَاتٍ.

وَيَأْتِي أَصْحَابُهَا عِنْدَ رَبِّهِمْ مُفْلِسِينَ مِمَّا أَقَامُوا مِنْ عِبَادَاتٍ، حَسَبُوهَا  
تُغْنِيهِمْ، فَضَيَّعُوهَا بِسُوءِ فَهْمِهِمْ لِمَعْنَى الْإِخْلَاصِ فِي الْعِبَادَةِ، وَخَلُّوهَا مِنْ  
الْمَحَبَبَاتِ وَالْمُفْسَدَاتِ وَالْمَبْطَلَاتِ.

وَقَدْ زُكِّيَتْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ امْرَأَةٌ، تَصُومُ نَهَارَهَا، وَتَقُومُ لَيْلَهَا،  
وَلَكِنهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا.

فَقَالَ ﷺ: « لَا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ »<sup>(1)</sup>

الْعِبَادَةُ لِلَّهِ طُهْرٌ، وَعِزٌّ، وَاسْتِقَامَةٌ، وَعَدْلٌ، وَعِلْمٌ، وَجَدُّ، وَعَمَلٌ،  
وَبِرٌّ، وَصَبْرٌ وَاثِقٌ، لَا يَأْسَ مَعَهُ وَلَا قَنُوطٌ، وَهَمَّةٌ عَالِيَةٌ فِي طَلْبِ الْمَعَالِي،  
وَالْبُعْدِ عَنِ سَفَاسِفِ الْأُمُورِ.

فَإِذَا رَأَيْتَ أَضْدَادَ هَذِهِ الصِّفَاتِ فِي سُلُوكِ أَفْرَادٍ أَوْ جَمَاعَاتٍ، فَاعْلَمْ

(1) رواه أحمدٌ عن أبي هريرة (٩٢٩٨) ورواه الحاكمُ في المستدرک، وقال: هذا حديثٌ  
صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

أنها قد أساءت فهمَ العبادة في اعتقاد أو تطبيق.  
وقد تُساق الأمةُ إلى جهنم - وهي تزعم أنها تعرف ربَّها - لا لشيء إلا أنها رَضِيَتْ بأن تكون مستضعفةً في الأرض، ولم تأخذ بأسباب نهضتها وعِزِّها، في أرض واسعة موفورة الأسباب؛ لحفظ كرامة وفضل.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الظَّالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧﴾ 》<sup>(1)</sup>

إنَّ العبادة الخالصة لله تُحقِّق في الإنسان عِزًّا، لو أراد أن يكون معه دون ذلك ما استطاع.

وقد رأينا "جعفر بن أبي طالب" وهو مهاجرٌ بالحبشة، وله حاجة في بقائه ومن معه مهاجرًا، وقد أرسلت قريش في طلبهم. فجاءت لحظةٌ اختيرَ "جعفر" فيها في أعزِّ ما يعتزُّ به، من عبادة ربِّه. حين فشل موفدوا قريش في إقناع "النجاشي" بعودتهم، وأرادوا أن يُحقِّقوا شيئاً من إغارة الصدور عليهم.

فقالوا لبطانة النجاشي: « أطلبوا منهم حين يأتون أن يُحيُّوا النجاشي، كما تُحيُّون ».

وكانت التَّحِيَّةُ سجوداً، أو قريباً من السجود.

فخاطبوا جعفر ابن أبي طالب - رضي الله عنه - بذلك، وأرادوا أن

(1) النساء: ٩٧.

يُحَقِّقْ لَهُمْ مَا طَلَبُوا.

فَأَبَى كُلُّ الْإِبَاءِ.

وقال: « لا نسجد إلا لله ».

قال ذلك في وقتٍ قد تُسْتَبَاحُ فِيهِ الْحِيلَةُ.

ولكنَّ عَزَّتَهُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، وَالْإِخْلَاصِ لَهُ، لَمْ تَجْعَلْهُ يَعْطِي شَيْئاً مِنْ

حَقِّ هَذِهِ الْعِبَادَةِ لِأَحَدٍ سِوَاهُ.

الْإِنْسَانُ خُلِقَ لِيُعْبَدَ رَبَّهُ. فَإِذَا رَأَيْتَهُ عَبْدًا لِشَيْءٍ سِوَاهُ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ

سَيُصَابُ بِشَتَى أَلْوَانِ الدُّلِّ وَالْهَوَانِ.

دُّلُّهُ لِقَطِيفَةٍ، أَوْ مَنْصَبٍ، أَوْ جَاهٍ.

دُّلُّهُ لِحَصُولِ مَا يَعْْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، مِنْ دَرَاهِمٍ أَوْ دِينَارٍ.

وَتَعَسَّ مَنْ يَعْْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ.

الْإِنْسَانُ عُلِّمَ بِالْقُرْآنِ حِكْمَةَ خَلْقِهِ، وَغَايَةَ وُجُودِهِ.

وهذه الحكمة والغاية هي - وحدها - التي يصلح بها في ذاته،

ويصلح مع غيره.

هي التي يُنَاطُ بِهَا سِلْمُهُ وَأَمْنُهُ، وَيَحْفَظُ بِهَا حَقَّهُ وَحَقَّ غَيْرِهِ.

هي التي ينحسر بها الغلو والبغي، وطلب الغلو في الأرض والفساد.

ويجد بها الناس - جميعاً - مساواتهم - بلا ادعاء - في الحقوق

والواجبات، حيث لا يعبدون إلا الله، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من

دون الله.

وتلك ما أمر رسولنا ﷺ أن ينادي بها أهل الكتاب:

﴿ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (1).

أي: إن تولّى أهلُ الكتاب عن الاستجابة لكلمة سواء - في تقرير الحقوق والمعاملات - فاشهدوا أنتم على أنفسكم - بعملٍ وواقع - أنكم مستمسكون بها، مُخلصون لها.

مستمسكون بها في حقيقتها.

ومستمسكون بما تدعو إليه من عدلٍ ومساواة.

لأنكم - بذلك - ستكونون أهلاً لها، لا تهيئون، ولا تُستضعفون، ولا تُستذلون.

وعندئذ سيستجير بكم من ليس منكم، فتجبروه.

ويحتكم إليكم من يخالفكم، فتتصفوه.

ولكن عليكم أن تصدقوا في نداء من تدعونهم إلى كلمة سواء وأن يرى الصدق فيما بينكم، في روابطكم ومعاملاتكم، وإصلاح ذات بينكم.

يرى الصدق في تميزكم وانتصار الفضائل في أنفسكم.

وتكونون بها - وبالعامل بمقتضاها - خير أمة أخرجت للناس،

تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله.

(1) آل عمران: ٦٤.

ولا يلزم من النداء بها، والدعوة إليها أن يكون الناس جميعاً على دين واحد ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (1)

وإنما الذي يكون هو أمة خير تدعو إليه، وتأمّر بالمعروف، وتتهى عن المنكر، وتصدق فيما تدعو وتأمّر وتتهى، فتُنصف المظلوم ولو كان من غيرها، وتأخذ على يد الظالم ولو كان منها.

وحين تُوجد هذه الأمة تكون - في ذاتها - دعوة صادقة لعبادة ربّها. بمكانتها، وقوّتها، وقدرتها على تحقيق العدل، ودفع الظلم، لا فيما بينها فحسب، بل في ربوع الأرض كلها.

وعندئذ تكون غالبية بتأييد الله لها، منتصرة بأسباب النصر، التي يبعُد بها الفشل، وذهاب الرّيح، ويصان الحق، ويُقام العدل والقسط.

والناس يرون - في كل عصر - ماذا يكون شأن الأمة القويّة في التأثير على الناس، ومحاولة تقليدها، أو الركون إليها.

فإذا وُجدت الأمة القويّة العادلة، التي يستظل الإنسان بعدلها حيث كان، فذلك ما يُرجى من حكمة وغاية خلق الإنسان.

وذلك ما من أجله أرسل الله الرسل بالبينات، وأنزل الكتاب والميزان.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۗ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ

(1) يوسف: ١٠٣.

وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ (1)

والأمة التي تعبد ربها - أو تدعى ذلك - إن لم تكن كذلك، فقد يستبدل الله قوماً غيرها.

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ (2)

ذاك ما تعلمه الإنسان من القرآن.

كما تعلم أسباب تحقيق ذلك : بالعلم والعمل..

العلم بدنياه بدافع من دينه.

والعلم بدينه لصالح دنياه وآخرته، بلا تفرقة.

وأن يكون العلم عملاً وفضلاً وخلقاً.

و« فقه التدين » يقتضي أن لا تُثار قضايا الدين بعيداً عن الواقع، ويُعالج الواقع بغير فطرة الدين.

والإنسان قد علم بالقرآن كيف يحيا حياة طيبة في دنياه، ويفوز برحمة الله في أخره، في امتزاج فطري لا تباين فيه، ولا تعارض ولا تناقض.

فإن الثواب في الآخرة قد يتحقق للإنسان وهو يباشر شهوته، ويُحقق مُتَعَتَهُ، ما دام لا يبغى ذلك إلا فيما أحل الله له.

قال ﷺ: « وَفِي بُضْعٍ (3) أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ »

قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟

(1) الحديد: ٢٥.

(2) محمد: ٢٨.

(3) البضع: يُطَلَّقُ عَلَى الْجَمَاعِ وَعَلَى الْفَرْجِ نَفْسِهِ.

قال: « أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟

فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ »<sup>(1)</sup>

وعندما نقول: « يتعلم شئون دُنْيَاهُ بدافع من دينه » إنما نريد لنتائج

العلم أن تُصَانَ من عَبَثِ العَابِثِينَ وبغِي المتسلطين؛ ذلك أن للعلم نتائج،

وقيَمَ الإنسان وأخلاقه هي التي تُصَانَ بها النتائج، فلا يدمر الإنسان

بنتائج العلم ما يُعَمَّرُ، ولا يسوق الفناء إلى ما شِيدَ من بناء.

خُذْ مَثَلًا "الحديد" الذي ذكره الله في الآية الكريمة:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

بِالْقِسْطِ ۗ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ

وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ﴿٢٥﴾<sup>(2)</sup>

« الحديدُ فيه بَأْسٌ شديدٌ ومنافعٌ للناسِ ».

والله قد أنزل الحديد وهو يعلم ما فيه من قُوَّةٍ، وما فيه من منفعة.

والإنسان هو الذي يستعمل الحديد في هذه أو تلك.

ولابدَّ لاكتشافه وصياغته على نحو ما من علم وعمل.

والإنسان هو صاحب الغاية فيما يقصد ويعمل..

فلا بدَّ من العناية بالإنسان - أولاً - بتحديد رسالته، وبيان غايته.

وهذا ما كان، إذ نرى الآية الكريمة - قبل أن تذكر الحديد وما

(1) مسلم: كتاب الزكاة.

(2) الحديد: ٢٥.

فيه من قوّة ومنفعة - تذكر ما يصلح به أمر الإنسان، من منهج ومقصد.  
حيث قال الله - عزَّ وجلَّ :-

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ  
لِيُقِيمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾

قال الله ذلك قبل أن يقول: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ... ﴾  
وهنا يكون الامتحان والاختبار للإنسان حيث كان، وقد توفرت  
في يده أسباب القوة والمنفعة، وتحددت الرسالة والغاية.

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾  
ويستطيع الإنسان - بلا عناء - أن يرى نتائج العلم والعمل في سلوك  
الأفراد والأمم.

يستطيع أن يجيب: هل استعملت أسباب القوة والمنفعة في نصر الله  
ورسوله ؟ أم استعملت - عند كثير - في غير ذلك ؟

وماذا كانت النتائج في سلم الإنسان وأمنه، في نفسه ومع غيره ؟  
إنَّ نَصْرَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ مَعْنَاهُ: نَصْرُ الْفَضَائِلِ وَالْمَكَارِمِ.

معناه: إقامة العدل مع العدو والصديق، والقريب والبعيد.

معناه: استعمال الحديد لردع الظلم والبغي والفساد.

وذلك هو الدَفْعُ الَّذِي عَنَّتْهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾<sup>(1)</sup>

نصر الله ورسله لمصلحة الناس، والله غني عن العالمين.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾<sup>(2)</sup>

وإذن هو الامتحان والاختبار للإنسان، دون حاجة لله في عمل الإنسان.

امتحان واختبار يترتب عليه حسابٌ وجزاء لمن أحسن أو أساء.

وملك الله لا تزيده طاعة طائع، ولا تنقصه معصية عاص.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ

حَمِيدٌ ﴾<sup>(3)</sup>

ومن أوّل ما نزل من الوحي علمنا القرآن بم ثُصان النتائج - نتائج

العلم - لمصلحة الإنسان؛ حتى لا يقع بغي أو طغيان.

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ

الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ

الْإِنْسَانَ لَيْطَغِي ﴿٦﴾ أَنْ رَّأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ ﴾<sup>(4)</sup>

(1) البقرة: ٢٥١.

(2) الحج: ٧٤.

(3) إبراهيم: ٨.

(4) العلق: ١ - ٨.

يا الله.. يُتلى ذلك على النبي الأمي، الذي لم يقرأ ولم يكتب.

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ (1)

ولا أحد يجهد ما صنع القلم في حياة الإنسان، بل في حضارة الأمم ونهضتها. ما صنع في علم وعمل، وتواصل وترابط، وعهود ومواثيق.

﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ (2)

« نَبَّه - تعالى - بهذا على فضل علم الكتابة؛ لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو؛ فما دُوِّنت العلوم، ولا قِيدت الحُكْم، ولا ضُبِطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كُتِب الله المنزلة، إلا بالكتابة. ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا. ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره، دليل إلا القلم والخط، لَكَفَى به ».

﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (3)

ولا يستطيع إنسان أن يُحصي ما تعلّمه الإنسان - في شتى ينابيع العلم والمعرفة - وما ترتب على ذلك من تفوق مُذهل في مجال الصناعة وعلوم الفضاء، بل في مجالات شتى من شئون الحياة، حتى سلبت مظاهره كثيراً من عقول البشر، وغدا مثلاً أعلى عند كثير ممن أخذوا به، وفَتِنوا بمظاهره.

(1) العنكبوت: ٤٨.

(2) العلق: ٤.

(3) العلق: ٥.

ولكن بقدر التفوق المذهل في انطلاق المادة - في عصرنا هذا - نرى التخلف المزري في تقدير قيمة الإنسان، والمحافظة على حقوقه وكرامته. أَفَلَتَتْ نَتَائِجَ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ - مِمَّنْ فَتَنُوا بِهَذِهِ النَتَائِجِ - أَنْ يَسِيطَرَ عَلَيْهَا.

وغدا الإنسانُ بها مُهَدِّدًا في يومه، خائفًا من غده. وَفَقِدَ التَّوَازِنَ، وَاخْتَفَى الْعَدْلُ. وَتَحَوَّلَتْ أَقْوَاتُ الْجِيَاعِ إِلَى بَطُونِ الْمَدَافِعِ. وَأَحْرَزَ الْإِنْسَانُ مِنْ قُوَّةِ الْحَدِيدِ وَيَأْسَهُ مَا يَظُنُّ بِهِ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى سَحْقِ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا.

وأذكرُ أنَّ رَئِيسَ أَحَدِ الْكُتْلَتَيْنِ، قَالَ - فِي حَدِيثٍ - لِلْآخِرِ: "عِنْدَنَا مِنَ الْأَسْلِحَةِ مَا يَدْمِرُ الْأَرْضَ كُلَّهَا". فَقَالَ لَهُ الْآخِرُ: "وَنَحْنُ عِنْدَنَا مَا يَدْمُرُهَا أَرْبَعِينَ مَرَّةً". فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: "يَا اللَّهُ ! عِنْدَمَا يَطْفِي الْإِنْسَانُ وَيَسْتَبِدُّ، لَا يَقِفُ بِطُغْيَانِهِ عِنْدَ نَفْسِهِ، بَلْ يَمْتَدُّ طُغْيَانُهُ حَتَّى يَصِلَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ، الَّذِي يَتْبَاهَى فِيهِ أَنَّهُ يَدْمُرُ الْأَرْضَ - بِمَا يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ - أَرْبَعِينَ مَرَّةً". هَذَا السُّعَارُ فِي إِحْرَازِ الْقُوَّةِ، وَالتَّهْدِيدِ بِهَا، وَالتَّفَاخُرِ وَالتَّعَالِي أَنْسَى هَذَا الْقَائِلَ أَنَّ تِسْعًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ فِيهَا، مَا دَامَتِ الْأَرْضُ قَدْ دُمِّرَتْ.

والناس جميعاً يعلمون أنَّ القوم الذين أحرزوا هذه القوة مغتصبين لأقوات شعوب وأمم.

وإذا كانت أقواتُ الجياع قد حُشرت في بطون المدافع، وفي إعداد أسلحة الخراب الفاجع والدمار الشامل.

فإن الذين تطَّلَعوا إلى الغد المنشود - بعد ويلاتٍ وأزماتٍ، في حروب باردة وساخنة - لم يلبثوا أن رأوا أن التخلص من أسلحة الدمار الشامل يخضع لموازنين الأقوياء من أصحاب المصالح، الذين لا يرون للشعوب المطحونة شأنًا، ولا يُقيمون لمصالحها وزنًا.

كم أنفقوا في إعداد أسلحة الدمار الشامل ؟  
 وكم يُنفقون في التخلص منها، أو من نفاياتها ؟  
 وكم شقَّى الإنسان، ويشقى في الأحوال كلها ؟  
 ذلك ما كان من نتائج العلم حين رأى الإنسان نفسه قد استغنى به.

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿١﴾ أَنْ رَّأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿٢﴾ ﴾ (1)

طغى بالعلم، واستبدَّ بنتائجه.

وضع الأمن والسلم من حياة الإنسان، وظلمت كلماته، وأصيب منتظروه بالإحباط واليأس، حين رأوا أن المنظمات العالمية - مع ضرورتها - لا يمكن أن تُحقق للناس أمنًا، أو تقيم في العالم سلمًا.

وغاب عن هؤلاء أن الأمن - في حقيقته - يرتبط بصفات النفس.

والسلم - في جوهره - يرتكن إلى القيم والأخلاق.

فلا بُدَّ من الرجوع إلى الإنسان الذي أنزل من أجله القرآن؛ لمعرفة ما

(1) العلق: ٦، ٧.

يسيطر على فكره من مذاهب، وما يتحكم في سلوكه من دوافع، وما يُحدِّد سعيه من غاية؛ حتى يستعمل بأس الحديد في نصرِ الله، لا فيما تفرضه شهوته وهواه.

وقد غاب عن الإنسان علاج ما يكون فيه من بغي وطغيان. ووقف في علاج ذلك عند حلول مؤقتة، لا يلبث أن يرى قصورها في تحقيق أمنٍ أو سلِّمٍ، كالمنافسة في المزيد من إحراز القوة والبأس. وهو تنافس مسعور، لا يقف عند حدٍّ ما لم تحكمه ضوابط النفس، وتحرسه حصون الحق والعدل لأُمَّة تُخضع قوتها لنصرة الله ورسله؛ حتى تجعل العدل ميزاناً بين الخلق. ولن يكون ذلك إذا فرط الناس في اعتقاد ما يعالج به طغيان الإنسان.

ومن يتدبر المناسبة بين قوله تعالى:

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿١﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَى ﴿٢﴾ ﴾

وقوله: ﴿ إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْجُعِي ﴾

عرف السبيل إلى معالجة الطغيان عقيدة وإيماناً.

والإيمان نيّة، وقول، وعمل.

عملٌ يُصان به الاعتقاد، وتُحرس ضوابطه وحدوده.

العلاج لطغيان الإنسان ﴿ إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْجُعِي ﴾.

اليقين بالعوذ إلى الله، والحساب بين يديه.

ذاك ما يبيد الجريمة المبيّنة في نفس صاحبها قبل أن تولد.

ويجعل الإنسان - خوفاً من ربه - يُقدّم خيره، ويكف شره.  
وما يجعله يُخضع بأس الحديد لما يُرضي الله وينصره، لا لما يُغضبه  
ويُسخطه.

وأى تفريطٍ في إقامة العدل والقيام بالقسط، معلوم لله، الذي قال:  
﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ  
لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾.

فالعدل لا تُحدده أهواء الناس ولا شهواتهم..  
ولا يُترك تحديده لمآربهم، التي ترتبط كثيراً بمنافعهم.  
وإنما هو مُحدّد من عند خالقهم جميعاً ورازقهم.  
والذي لا تغيب حقيقته عن علمهم وفطرتهم.  
ومن أجل إقامة العدل، وحراسة موازينه، أنزل الحديد فيه بأسٌ  
شديد، ومنافع للناس؛ ليعلم موقف الناس من هذه القضية، التي تتصل -  
كُلّ الاتصال - بسلامهم وأمنهم.

إذ لا سلام بلا عدلٍ، ولا أمن بلا إقرارٍ حقٍ.  
والحديد - في بأسه وقوته - مُتّاح للناس جميعاً.  
وهم - جميعاً - مُمتحنون، وإلى الله جميعاً راجعون.  
وما بأيدي الناس هالكٌ، وهم هالكون.  
﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۗ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (1).

وهذه الحقيقة - ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إليه لا إلى غيره - كافية في ردع الإنسان في ذاته، إن هو آمن بها وأيقن.

ولكن، هل كل الناس بها مؤمنون حتى نبتغي الأمن والسلام في الإيمان بها، والعمل بمقتضاها ؟

﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (1).

من هنا يعلمنا القرآن أن الدَّفْعَ سُنَّةً من سُنَنِ اللَّهِ، به يُرَدُّ الشَّرُّ، وَيُحَسَّمُ الفساد.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ

اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (2).

من هنا لا تجد فطرة الناس - في أيِّ مكانٍ - تُتَكَرَّ على أحدٍ أن تكون له قُوَّتُه وعتادُه، ولكن الذي يُنكَرُ هو: كيف تُستعمل القُوَّةُ ؟

وإذا كان أكثر الناس لا يؤمن بالعود إلى الله، وإذا آمن لا يعمل بمقتضى إيمانه، فما السبيل لردع البغي والطفغان ؟

السبيل - مع التذكير بالرجوع إلى الله، والحساب بين يديه - هو الإعداد للقيام بالدَّفْعِ كما أمر الله، وكما هو قائم في كل جزئية من جزئيات الحياة.

والذين يُنَحَّون هذا الدَّفْعَ من تقديرهم، ويظنون - واهمين - أن

(1) يوسف: ١٠٣.

(2) البقرة: ٢٥١.

السَّلَامَ وَالْأَمْنَ يَتَحَقَّقُ بِدُونِهِ لَا كَمَا شَرَعَ اللَّهُ، يَخْطِئُونَ فِي حَقِّ الْأَمْنِ وَالسَّلَامِ، كَمَا يَخْطِئُونَ فِي حَقِّ أَنْفُسِهِمْ.

ولذا أمر الله بإعداد القوة العادلة، التي تخضع - خضوعاً كاملاً - لمرضاة الله، والاستجابة لأمره، في قوله:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (1)

وإعداد القوة التي أمر الله بها - كما نرى - ليس فيها مجال لاتباع الهوى، فهي قوة يُرْهِبُ بها عدو الله أولاً.

فإنَّ عداوتهم ليست هي الأصل في إعداد القوة، وإنما الأصل في ذلك أن عداوتنا تَبَعٌ، فَمَنْ عَادَى اللَّهَ عَادِينَاهُ.

وتلك - حين تُنصَفُ موضوعياً - يُعَلِّمُ مِنْهَا أَنَّ ذَلِكَ فِي مصلحة الإنسان حيث كان؛ لأنَّ نَصَرَ اللَّهُ نَصَرَ لِحَقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَبِرُّ بِهِ، وَعِصْمَةٌ لَهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْفَسَادِ.

ولكن المفاهيم - في كثير - ظلمت، كما ظلم مفهوم (الأمن) و(السَّلَام).

ومن الواضح البين أن الله قد قَيَّدَ نَصْرَهُ مِنْ يَنْصُرُهُ بِقَوْلِهِ:

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (2)

(1) الأنفال: ٦٠.

(2) الحج: ٤٠.

فَمَنْ نَصَرَ اللَّهَ فِي نَفْسِهِ، نَصَرَهُ رَبُّهُ.

بل قال عمَّنْ يَنْصُرُهُمْ - وقد فرض ذلك عليهم :-

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا

بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَنِقَبَةُ الْأُمُورِ ﴿١١﴾ ۝ (1)

فَمَنْ يَنْصُرُهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ضَرْبِيَّةٌ لَأَبَدًا أَنْ يَقُومُوا بِأَدَائِهَا، وَإِلَّا جُرِّدُوا

مِنْ نَصْرِهِمْ.

ولم تكن العاقبة لهم ﴿ وَاللَّهُ عَنِقَبَةُ الْأُمُورِ ﴿١١﴾ ۝

وهي لن تبقى وتدوم إلا لمن دفع ضريبة النصر والتمكين في الأرض.

إقامة الصلاة: ولا تَسَلْ عَمَّا تُوَدِّيهِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ مِنْ طُهْرٍ، أَيْ طُهْرٍ.

وإيتاء الزكاة: ولا يخفى ما فيها من زكاةٍ وطهر، وما تحققه من

ترابطٍ وبر.

والأمر بالمعروف: وفي المعروف برُّ بالناس جميعاً وخير.

والنهي عن المنكر: وفيه ما فيه من حَسْمٍ لأسباب الفساد والشر.

تلك ضريبة من يُمَكِّنُ لهم بالنصر.

ومداولة الأيام بين الناس دَوَّارَةٌ، لا تَدَعُ مِنْ يَبْغِي الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ

دُونَ رَدْعٍ، وَلا تَدَعُ مَنْ يَتَطَاوَلُ بِالنِّعْمَةِ وَيَخْتَالُ بِهَا، دُونَ أَخْذٍ أَوْ خَسْفٍ.

ولا تترك من يقول: ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ ﴿٢٤﴾ (2) - تطاولاً على الخلق -

(1) الحج: ٤١.

(2) النازعات: ٢٤.

دون أن يُؤخذَ بذنبه، ويُهْلِكَ بمعصيته.

لِيُوقِنَ النَّاسُ أَنَّ عَقِيدَةَ ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجْعَىٰ ﴾ (1) ليست عقيدة

مجردة عن قوة، وليست مجرد بلاغ للناس، بلا شهود واقتدار.

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ

لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا

يُؤْمِنُونَ ﴾ (2).

أرأيت على من تكون الخسارة، خسارة هؤلاء الذين لا يوقنون أنهم

إلى ربهم راجعون ؟

إن خسارتهم على أنفسهم.

﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (3)

ولأترك لك أن تتدبر بقلبك حكمة الجمع بين قوله: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ

نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ وقوله: ﴿ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ ﴾.

لتكون لك مع علاج البغي والطفغيان وقفة رُشد وتدبر.

تحتاج منك - أولاً - أن تحقق هذا العلاج في نفسك، قبل أن تنشده

في غيرك؛ فإنَّ علاجَ أمرِك كله فيما جمعه "لقمان" لابنه في كلمة،

(1) العلق: ٨.

(2) الأنعام: ١٢.

(3) الأنعام: ١٢.

حيث قال:

« اثنان لا تتسهما قط: الله، والدار الآخرة ».

فإنَّ هذا النسيان هو الذي دمرَّ حياةَ الناس، وأشاعَ فيهم البغي والفساد.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ  
الْفَاسِقُونَ ﴾ (1).

ذاك ما تعلمناه من القرآن.

كما تعلمنا كيف تكون مداولة الأيام بين الناس عدلاً قائماً على علم وقدره.

علم من أحاط بكلِّ شيءٍ علماً.

وقدرة من لا يُعجزه من شيءٍ في السماوات ولا في الأرض .. إنه كانَ  
عليماً قديراً.

مداولة الأيام بين الناس سُنَّةٌ من سنن الله..

وهي آية من آياته، مُعبِّرة عن علمه وقدرته.

فمن أحبَّ أن تكون الأيام له لا عليه، فليعرف السبيل؛ فإنَّ سننَ

الله لا تُجامل ولا تُحابي، ولا تتبدل ولا تتحول.

ولا صلة لهذه السنَّة من سنن الله لما يتمناه الإنسانُ أو يرجوه، دون

عمل وأخذٍ بالأسباب التي بيَّنها الله، وأرسل من أجلها الرسل، وأنزل

(1) الحشر: ١٩.

الكتاب.

وقال سبحانه:

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ (1)

تعلمنا من القرآن:

كيف يكون التعاون على البرِّ.

إذ عرفنا أن البرَّ ليس مجرد عطفٍ على محتاج أو فقير، وكفى ..  
وإنما البرُّ - الذي يُحقق غايته في توازن الحياة - هو ما بيَّنه القرآن،  
ووصف القائمين به، في قوله تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ (2)

فالبرُّ ليس صفةً للنفس تنعزل بها عن شئون الحياة.

(1) النساء: ١٢٣، ١٢٤.

(2) البقرة: ١٧٧.

وإنما البرُّ - وهو يقترن بالتقوى - معنى يشمل جميع ما يتحقق به صلاح الحياة.

ولذا جاء الأمر من عند الله بالتعاون على البرِّ مقترناً بالتقوى، في قوله تعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (1)

هكذا جاء الأمر والنهي من الله للذين آمنوا.

الأمر بالتعاون على ما لا تصلح الحياة إلا به ﴿ الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾

والنهي عن كل ما يفسد شأنها، ويدمر روابطها ﴿ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾

وما أمر الله - تعالى - بالتعاون على تحقيقه ببرِّ بجميع الأحوال، ولا يخصُّ جانباً من الحياة دون جانب.

والبرُّ اسمٌ جامع لكل طاعةٍ لله وللرسول. شامل لأعمال الخير المقرّبة إلى الله، الموجبة للثواب، المؤدية إلى الجنة.

فلا انغزال في أداء الخير والكف عن الشر، بل عزمٌ وصدقٌ وصبرٌ.

ولا شحٌّ في إحسانٍ أو صدقة، بل إعطاءٌ في رغبةٍ وحبّ.

ولا تقاعدٌ عن إنصافٍ مظلومٍ ومنع ظالمٍ، بل جهادٌ في ردِّع هذا،

ونصرٍ ذلك، كما أمر رسول الله ﷺ بقوله: « انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ».

فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا

كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصَرُّهُ؟

قَالَ: « تَحْجُزُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنَ الظُّلْمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ »<sup>(1)</sup>.

ولا نقضَ لعهد ولا غدر، بل وفاء وصدق في كل عهد وميثاق، سواء كان بين العبد وربِّه، أو بينه وبين الناس.

ومن قصرَ البرَّ على ما تهواه نفسه من أمر الدين، لم يسلم من أتباع خطوات الشيطان فيما يدعو إليه ويأمر به.

والله يأمر عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره ما استطاعوا، وترك جميع زواجره.

حيث قال:

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۗ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾<sup>(2)</sup>.

﴿ آدْخُلُوا فِي السِّلْمِ ﴾ يعني الإسلام ﴿ كَآفَّةً ﴾ أي: اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البرِّ، كما قال ابنُ عباس - رضي الله عنهما -.

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي: اعملوا بالطاعات، واجتنبوا

(1) البخاري: كتاب الإكراه.

(2) البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩.

ما يأمركم به الشيطان؛ فإنه يأمر بالسوء والفحشاء

﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (1)

ولهذا قال الله: ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (2)

﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أي: عدلتم عن الحق

بعدما قامت عليكم الحجج ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ في انتقامه، لا يفوته

هاربٌ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في جميع أمره ونهيه.

فلا مجال - بعد هذا البيان - لقصر البر على ما تهواه النفس أو ترضاه؛

فإنما البر في طاعة الله، ولو كان فيه ما تكرهه النفس أو تأباه.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ

لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2)

ولذا جاء في آية "البر":

﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ

وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (3)

فلم يكن البر مجرد ركعات تُستروح بها النفس.

(1) فاطر: 6.

(2) البقرة: ٢١٦.

(3) البقرة: ١٧٧.

وإنما قد يكون البرُّ في ميدانِ تَباعٍ فيه النفس، وهي لا تُباع إلا لله.  
وسيلةُ الله غالية « أَلَا إِنَّ سِيعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةَ » (1)  
وذاك ثمنها:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (2)

يُخبر الله تعالى أنه عاوضَ من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم - إذا بذلوها في سبيله - بالجنة.

وهذا من فضله وكرمه وإحسانه؛ فإنه قبلَ العوضِ عما يملكه بما تفضلَ به على عباده المطيعين له.

ولهذا قال الحسنُ البصري - رحمه الله -:  
« بَايَعَهُمُ اللَّهُ فَأَعْلَى ثَمَنُهُمْ ».

قال عبدُ الله بن رواحة - رضي الله عنه - لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة: اشتريت لربك ولنفسك ما شئت.

قال ﷺ: « اشتريت لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

(1) الترمذي: كتاب صفة القيامة، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ أَبِي النَّضْرِ.  
(2) التوبة: ١١١.

واشترطُ لنفس أن تمنعوني ممَّا تمنعون منه أنفسكم وأموالكم .»

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

قال: « الجنة ».

قالوا: ربحَ البيعُ. لا نقيـل ولا نستقيـل.

\*\*\*

obeikandi.com

القرآن حُفَظَ مِنْ أَجْلِ الْإِنْسَانِ  
وَمَا حُفِظَ لِلْإِنْسَانِ  
لَا يَحْفَظُ الْإِنْسَانُ إِلَّا بِهِ



obeikandi.com

## القرآن حُفِظَ لِلإِنسَانِ

### وما حُفِظَ لِلإِنسَانِ لَّا يُحْفَظُ لِلإِنسَانِ إِلَّا بِهِ

إنَّ من رحمة الله بخلقه أنَّ ما لا تقوم حياتهم إلاَّ به، قد ضَمِنَ حفظه لهم، ولم يترك حفظه لغيره.

حياة الناس لا تكون إلاَّ بالماء، وقد جعل الله من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ. ضَمِنَ الله حفظه، ولم يدع ذلك لأحرٍ سواه.

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٦﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ

الْمُنزِلُونَ ﴿٦٧﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٦٨﴾ ۞ (١)

إنَّ ما لا تقوم الحياة إلاَّ به - من مادَّيات الحياة أو معنوياتها - قد تكفَّلَ الله به.

ولولا ذلك لهلك الناس، وبطلت الحياة.

ماذا تكون حالة الناس لو كان الرزقُ بأيديهم، أو تُركَ تدبيرُ أمر

الخلق لهم ؟!

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ۗ ﴿٦٩﴾ (٢)

فالماء والهواء، والأرض والسماء، والشمس والقمر، والليل والنهار،

والزرع والثمار، ضرورات لحياة الناس، تكفَّلَ الله بحفظها؛ لأنَّ حياة

(١) الواقعة: ٦٨-٧٠.

(٢) الإسراء: ١٠٠.

الناس - في دُنْيَاهُمْ - لا تقومُ ولا تدومُ إلى أَجَلٍ إِلَّا بِهَا.  
ومَنْ تدبر القرآن في حياة الإنسان، وعرف حقيقة الحياة، عرف أن الله - الذي جعل من الماء كُلَّ شيءٍ حي - قد جعل القرآن نُوراً تهتدي به وتستقيم الحياة.

وكثيراً ما يتجاوزُ الحديثُ عن "الماء" مع الحديثِ عن "القرآن" في آياتِ الذِّكْرِ الحكيمِ، ونرى الرسولَ ﷺ يقولُ: « مثلُ ما بعثني اللهُ به من الهدى والعلم، كمثلِ غَيْثٍ أَصابَ أرضاً... » (1)

فإنَّ في الماءِ حياة، وفي القرآن حياة، أي حياة.  
ولكن شتآن ما بين حياةٍ وحياة.  
حياة مؤقتة لا تدوم، وحياة دائمة لا تنقطع.  
حاجة الإنسان إلى الماء في دُنْيَاهُ.  
ولا حاجة له فيه إذا فارقَ الحياة.  
ولكن صلة القرآن بالإنسان مُمتدة، لا تنقطع بفراق دُنْيَاهُ، في موت أو بعث، أو حساب وجزاء.

الإنسانُ في حاجة إلى مَنْ يهديه سواء السبيل، والقرآن هُدًى للناس يهدي - في كُلِّ شأنٍ - للتي هي أقوم.  
فإذا مات الإنسانُ لازمه القرآن، حُجَّةً له أو عليه.  
فقد روى مسلمٌ، عن أبي أَمَامَةَ البَاهِلِيِّ - رضي اللهُ عنه - قال:

(1) البخاري: كتاب العلم.

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « اقرءوا القرآن؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ... » (1)

وروى مسلم، عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ:  
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: « يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ - الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ - تَقْدِمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالْأَمْرَانِ.

وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ، مَا نَسِيْتُهُنَّ بَعْدُ. قَالَ:  
كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ (2)

أَوْ ظِلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ (3)

أَوْ كَأَنَّهُمَا حِرْزِقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ (4)

تُحَاجَّانِ عَنِ صَاحِبَيْهِمَا (5)

القرآن - إذن - حاضر مع الإنسان في أصعب المواقف وأشدّها.

وهو وفي لأصحابه، لا يتخلّى عنهم في هداية أو شفاعة.

وبه ترتفع منزلتهم، ويعلو شأنهم.

روى الترمذي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقرأ، وارثق، ورتل كما

(1) مسلم: كتاب صلاة المسافرين.

(2) العمامة والغياية: كل شيء أظلل الإنسان فوق رأسه، من سحابة وغبرة وغيرهما. قال العلماء: المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين.

(3) بفتح الراء وإسكانها، أي: ضياء ونور.

(4) الحِرْزِقَانِ وَالْحِرْزِقَانِ: مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، وَهُمَا قَطِيعَانِ وَجَمَاعَتَانِ.

(5) مسلم: كتاب صلاة المسافرين.

كُنْتُ تُرْتَلُّ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا» (1)

وهذا الاستحضار أو الحضور ما كان يغيب عن تقدير الصحابة الكرام وهم يعملون بالقرآن.

فترى أبا الدرداء - رضي الله عنه - يقول: « أخاف أن يُقال لي يوم القيامة: أعلمت أم جهلت؟ فأقول: علمت، فلا تبقى آية في كتاب الله - أمرة أو زاجرة - إلا وتساألني الأمرة: هل ائتمرت؟ وتساألني الزاجرة: هل ازدجرت؟ فأعود بالله من علم لا ينفع، ومن دعاء لا يُسمع»  
هكذا يأتي القرآن يوم القيامة - أو يؤتى به - ليكون حجة للإنسان أو عليه.

ومن هنا تتضح حاجة الإنسان إلى القرآن في حياة أو موت.  
حيث لا تتوقف هدايته، ولا تذهب بركته، ولا تنقطع حُجَّته.  
ومما يلفت النظر وَصْفُ الْقُرْآنِ بِمَا وَصِفَ بِهِ الْمَاءُ؛ لبيان ما فيه من وفرة خير وعطاء.

وُصِفَ بِقَوْلِهِ: ﴿مُبَارَكٌ﴾ في أربعة مواضع، جاء الوصف بها - هكذا - مرفوعاً دلالة ثبات البركة ودوامها.  
موضعين في سورة " الأنعام ":

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (2)

(1) الترمذي: كتاب فضائل القرآن، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(2) الأنعام: ٩٢.

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (1).

وفي سورة "الأنبياء":

﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ (2).

وفي سورة "ص":

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (3).

أما الماء فوصف بقوله: ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ في موضع واحد. جاء الوصف فيه

منصوباً في سورة "ق":

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ (4).

وقد رأينا كيف تمتدُّ بركة القرآن مع مَنْ ارتوى به ولا تنقطع.

وكيف يُرحمُ به من اتَّبعه واهتدى بهداه، ولا يضل السبيل.

وهو يهدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم.

وعندما تتوفر أسبابُ الحياة للناس ينقطع العذْرُ، وتبطل الحُجَّةُ لمن

رَغِبَ عنها.

لا عذْرَ لِمَنْ مات ظمأً - والماءُ محمولٌ على ظهره.

ولا حُجَّةَ لِمَنْ ضلَّ السبيلَ، وأمامه هُدًى ونور.

(1) الأنعام: ١٥٥.

(2) الأنبياء: ٥٠.

(3) ص: ٢٩.

(4) ق: ٩.

وهداية الله لخلقه قد لازمت الإنسان من بدايته..

فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى !

وعرف الإنسان بهداية ربه عاقبة من أتبع هُداًه ومن أعرض عن ذكره.

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ

لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٥﴾ ﴾ (1)

ومن المعلوم أن للقرآن أسماء كثيرة، منها:

القرآن، والكتاب، والهدى، والنور، والشفاء...

أسماء كثيرة وصفات، قد ذكرت في القرآن في موضعها ومنها

(الدُّكْرُ) وقد ورد في القرآن الكريم بصيغ متنوعة، في بضع وخمسين

موضعاً. وجاء مقترناً بحفظ القرآن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (2)

ولا تخفى دلالة ذلك على كل مستبصر مُستتير.

حُفِظَ الذُّكْرُ لمصلحة الإنسان لهدايته - في كل شأن - وتذكرته.

وفي قوله: ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ تأكيد لحفظ القرآن، أي تأكيد.

ولم يكن حفظه - على النحو الذي حُفِظَ به - بمقدور لأحد إلا الله

- عز وجل -.

(1) طه: ١٢٣، ١٢٤.

(2) الحجر: ٩.

والروح الأمين ينزل بالقرآن على قلب الرسول ﷺ، فيحفظ ما يُلقى عليه، ما كان مقدوراً للرسول ﷺ أن يحفظه إلا بإحفاظ الله له، ولا كان بمستطيع أن يعرف موضع الآية - من أي سورة - إلا بتعليم الله له. وقد كان من حرصه ﷺ على حفظ ما يُلقى عليه، أنه كان يُبادر إلى أخذه، ويُسابق المَلَك في قراءته.

فأمره الله - عَزَّ وَجَلَّ - إذا جاءه المَلَك بالوحي - أن يستمع له. وتكفل الله له أن يجمعه في صدره، وأن يُيسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يُبينه له ويُفسره ويُوضِّحه. حيث قال - جَلَّ شَأْنُهُ -:

﴿ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (١) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٤﴾  
فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٦﴾ (١)

فكان حفظ القرآن - على النحو الذي نزل به - دلالة تحث الإنسان على حُسن تدبره والعمل به.

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَزْتَابُ  
الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٢)

القرآن محفوظ في الأرض وفي السماوات.

(1) القيامة: ١٦ - ١٩.

(2) العنكبوت: ٤٨.

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾  
 إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمْسُهُدُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾  
 تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ ۞ (1)

محفوظ في جميع مراحل تنزيله:

﴿ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٨١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٨٢﴾  
 إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٨٣﴾ ۞ (2)

حين بعث الله رسوله ﷺ، وأنزل عليه القرآن « كان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسترخوا شيئاً من القرآن، فيلقوه على السنة الكهنة، فيلبس الأمر ويختلط، ولا يدري من الصادق .. وهذا من لطف الله - تعالى - بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز».

ولهذا قال الجن: ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلَمَّتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨٤﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ ۖ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحْدِثْ لَهٗ شَهَابًا رَّصَدًا ﴿٨٥﴾ ۞ (3)

(1) الواقعة: ٧٥-٨٠.

(2) الشعراء: ٢١٠-٢١٢.

(3) الجن: ٨، ٩.

أي: مَنْ يَرُومُ أَنْ يَسْتَرْقَ السَّمْعَ الْيَوْمَ يَجِدْ لَهُ شَهَاباً مَرصِداً لَهُ، لَا يَتَخَطَّاهُ وَلَا يَتَعَدَّاهُ. بل يمحقه ويهلكه.

روى الإمام أحمد، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

(( كَانَ الْجِنُّ يَسْمَعُونَ الْوَحْيَ، فَيَسْتَمِعُونَ الْكَلِمَةَ فَيَزِيدُونَ فِيهَا عَشْرًا، فَيَكُونُ مَا سَمِعُوا حَقًّا، وَمَا زَادُوهُ بَاطِلًا. وَكَانَتْ النَّجُومُ لَا يُرْمَى بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ. فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ أَحَدُهُمْ لَا يَأْتِي مَقْعَدَهُ إِلَّا رُمِيَ بِشَهَابٍ يُحْرِقُ مَا أَصَابَ.

فَشَكَّوْا ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ، فَقَالَ: مَا هَذَا إِلَّا مِنْ أَمْرِ قَدْ حَدَثَ.

فَبَثَّ جُنُودَهُ، فَإِذَا هُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْ نَخْلَةَ.

فَأَتَوْهُ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي حَدَّثْتُ فِي الْأَرْضِ «. (1)

القرآن محفوظ بحفظ الله، في جميع مراحل تنزيله.

فالنَّازِلُ بِهِ مِنَ السَّمَاءِ هُوَ الرُّوحُ الْأَمِينُ.

وَالسَّمَاءُ قَدْ حُفِظَتْ مِنْ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ.

وَالْمُنَزَّلُ عَلَيْهِ هُوَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ، الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

وجبريل عليه السلام - وهو أمين الوحي لجميع الأنبياء - لا ينزل كيف شاء

وَأَنَّى شَاءَ، وَإِنَّمَا يَنْزِلُ بِأَمْرِ، وَيُحْبَسُ عَنِ النَّزُولِ بِأَمْرِ.

احتبس جبريل عن النبي ﷺ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وَحَزِنَ.

وقد روى الإمام أحمد، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

(1) رواه أحمد في مسنده، وابن أبي شيبة في مصنفه.

قال رسول الله ﷺ لجبريل: « ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » ٩  
 فنزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ (1) فكان ذلك الجوابُ

لمحمد ﷺ.

وقد احتبس جبريلُ عن النبي ﷺ حين سأله في أمر الروح،  
 وأصحاب الكهف، وذوي القرنين.

فقال ﷺ: « أخبركم غداً » ولم يقل: إن شاء الله.

حتى شقَّ على النبي ﷺ، ثم نزل بعد أيام.

فقال له رسول الله ﷺ: « أبطأت عليَّ حتى ساءني واشتقتُ إليك »  
 فقال له جبريلُ: إني كنتُ أشوق، ولكنني عبدٌ مأمور، إذا بُعثتُ  
 نزلتُ، وإذا حُبستُ احتبست.

فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا

خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (٢)

وأنزل: ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (2)

فلا جبريلُ الأمين عليه السلام بمستطيع أن يتنزلَ إلا حين يُؤمر.

ولا الرسولُ ﷺ بمجيبٍ عما سُئِلَ حتَّى يُخبر.

وما يُتلى على الرسول ﷺ ما كان الرسولُ - من قبلُ - يدره أو  
 يعرف ما يُشرعُ فيه.

(1) مريم: ٦٤.

(2) الضحى: ١-٣.

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا <sup>٥٢</sup> مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا  
 الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ  
 مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٣﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ <sup>٥٤</sup> إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ  
 الْأُمُورُ ﴿٥٥﴾ ١﴾.

وقد كان الكُفَّار - من مُشْرِكِي قريشٍ - إذا قرأ الرسول ﷺ  
 عليهم كتابَ الله وَحُجَّجَهُ الواضحة، قالوا له:  
 ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ <sup>٥٢</sup> ﴾ أي: رُدَّ هذا، وجئنا بغيره من نَمَطٍ  
 آخر، أو بَدَّلْهُ إلى وَضْعٍ آخر.  
 فقال الله - تعالى - لنبيه ﷺ:

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَدْبِرَ عَنْهُ <sup>٥٣</sup> مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي ﴾  
 أي: ليس هذا إليّ، إنّما أنا عبدٌ مأمورٌ، ورسولٌ مُبَلَّغٌ عن الله.  
 ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ <sup>٥٤</sup> إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ  
 ﴿٥٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا آدْرَأَهُمْ بِكُمْ <sup>٥٦</sup> فَمَنْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّنْ  
 قَبْلِهِمْ <sup>٥٧</sup> أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ٢﴾.

ما كان رسولُ الله ﷺ يُنْهَمُّ بالكذب بين قومه، وهم الذين لقبوه

(1) الشورى: ٥٢، ٥٣.

(2) يونس: ١٥، ١٦.

ب « الصادق الأمين » قبل بعثته.

ولهذا لما سأل هرقل، ملك الروم أبا سفيان ومن معه، فيما سأله من

صفة النبي ﷺ.

قائلاً له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قال أبو سفيان: لا.

وكان أبو سفيان - إذ ذاك - رأس الكفرة، وزعيم المشركين، ومع

هذا اعترف بالحق !

فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليذّر الكذب على الناس

ويكذب على الله <sup>(1)</sup>

وقال "جعفر بن أبي طالب" للنجاشي ملك الحبشة: « بعث الله فينا

رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته. وقد كانت مدة مقامه ﷺ بين أظهرنا

- قبل النبوة - أربعين سنة ».

القرآن محفوظ بحفظ الله، لا يزداد فيه ولا ينقص منه.

ولو كان الرسول ﷺ مُفْتَرِيًّا على الله - كما يزعم الجاحدون -

فَزَادَ فِي الرِّسَالَةِ، أو نَقَصَ مِنْهَا، أو قال شيئاً من عند نفسه، فنسبه إلى

الله، وليس كذلك، لعاجلنا بالعقوبة.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ

(1) البخاري: كتاب بدء الوحي.

لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧﴾ (1)

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿١١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٣﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (2)

القرآن الكريم قد حُفِظَ بحِفظِ الله، وبقي عزيزاً لا يقتربُ الباطلُ من ساحته.

ومن عزَّته أنك ترى الغالبَ مغلوباً أمام قوته، والمنتصرَ منهزماً أمام حُجَّته.

وكم هُزِمَ المسلمون، وانتصر القرآنُ.

وكم نال العدوُّ من ديارهم، ولم يستطع مغالبةَ حرفٍ منه.

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿١١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۗ

تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١٤﴾ ﴾ (3)

وصدق الله العظيم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (4)

فالله - وحده - هو الحافظُ له من التبديل والتغيير.

ولو أُسْنِدَ الحِفظُ لغير الله، لَوَقَعَ فيه ما وَقَعَ في غيره من تبديل

(1) يونس: ١٧.

(2) الحاقة: ٤٤- ٤٧.

(3) فصلت: ٤١، ٤٢.

(4) الحجر: ٩.

وتغيير.. وهذا من فضل الله ورحمته؛ لتبقى رسالة الرسل - جميعاً - محفوظة بحفظ الله للعالمين.

تُعرفُ منه كلمة الله لجميع المرسلين، وهو يقصُّ على الناس نبأهم بالحق، ولا يدع ذلك للمتقولين.

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كُتُبَ الْوَيْدِ الَّتِي هُمْ فِيهَا يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٧٦) وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ (٧٧) (١)

حُفِظَ الذِّكْرُ بِحِفْظِ اللَّهِ لِلْإِنْسَانِ حَيْثُ كَانَ.  
وما حُفِظَ لِلْإِنْسَانِ - لهديته في كُلِّ شَأْنٍ وتبصرته - لا يُحْفَظُ  
الْإِنْسَانُ - في دُنْيَاهِ وَأَخْرَاهِ - إِلَّا بِاتِّبَاعِ هِدَايَتِهِ.

فإذا دعا القرآنُ إلى اعتصام المؤمنين - جميعاً - بحبل الله، ونهاهم  
عن الفرقة، في قوله تعالى: ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (٢)  
فإنَّ حِفْظَهُمْ مِنَ الْفِشْلِ وَذَهَابِ الرِّيحِ، متوقفٌ على اتِّبَاعِ مَا أَمَرُوا  
بِهِ، واجتناب ما نُهوا عنه.

﴿ وَلَا تَنْزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (٣)  
وَمَنْ تَدَبَّرَ قَضِيَةَ الشَّرْطِ وَالْجِزَاءِ فِي الْقُرْآنِ، عَرَفَ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ  
عَاقِبَتَهُ وَجِزَاءَهُ، دُونَ عُسْرٍ أَوْ تَكْلُفٍ.

(١) النمل: ٧٦، ٧٧.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

(٣) الأنفال: ٤٦.

والقرآن كله ترى ذلك فيه ولو جاءت الآية منه بأسلوب خبري.  
تقرأ - مثلاً - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (1)

والآية ليس فيها أداة شرط وجزاء، فتحس منها بروح الشرط والجزاء

مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، ماذا يكون جزاؤه ؟  
تجيبك الآية بالجزاء أبلغ ما يكون الجزاء.  
وتقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ

جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (2)، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (3)

فلا يغيبُ عنكَ شرطُ هذا الجزاء.  
﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾  
شرطه: إيمان، وعمل صالح.  
كما لا يغيبُ عنكَ شرطُ ما تُحقِّقُ به المودَّةَ والمحبة، في قوله تعالى:

(1) الكهف: ٢٠.

(2) الكهف: ١٠٧.

(3) مريم: ٩٦.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (1)

إنه الإيمان والعمل الصالح. ولا تُطلب المحبة والمودة إلا بهما؛ فإنهما من الله، وما عند الله لا يُطلب إلا بطاعته.

روى مسلم، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال:

قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا، دَعَا جِبْرِيلَ.

فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا، فَأَحِبَّهُ.

قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُ:

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحِبُّوهُ.

فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ.

قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ... » (2)

فذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾.

« وما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله، إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى

يرزقه مودتهم ورحمتهم ».

وكان عثمان بن عفان - رضي الله عنه - يقول: « ما من عبدٍ يعملُ

خيراً أو شراً إلا كساه الله - عز وجل - رداءً عمله ».

وعن الحسن البصري - رحمه الله - قال:

(1) مريم: ٩٦.

(2) مسلم: كتاب البر والصلة والأدب.

قال رجل: « والله لأعبدن الله عبادةً أذكرُ بها ».

فكان لا يرى في حين صلاةٍ إلا قائماً يُصلي.

وكان أولَ داخلٍ إلى المسجد، وآخرَ خارجٍ.

فمكث بذلك سبعةً أشهر.

وكان لا يمرُّ على قومٍ إلا قالوا: انظروا إلى هذا المُرَّائي.

فأقبل على نفسه. فقال: « لا أراني أذكرُ إلا بشرٍ ».

ولم يزد على العمل الذي كان يعمل.

فكان يمرُّ - بعدُ - بالقوم فيقولون: « رَحِمَ اللهُ فلاناً الآن ».

وتلا الحسنُ قولَ الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ ﴿١١﴾ .

وتستطيع أن تقرأ القرآن الكريم وأن تُحسن تدبره، لتري كيف

يُحفظ الإنسانُ بالقرآن، وهو يهتدي بهُداء.

فإنَّ القرآنَ الكريمَ يُعطيك نتائجَ الأعمال، وما يجب أن تكون

عليه؛ لتحسن النتائج.

بل نراه - بفضل الله ورحمته - لا يذكر داءً في الناس، إلا ويبادر

بذكرِ الدَّواءِ، دونَ إبطاء.

حُدَّ مَثَلًا حديثه عن أصحابِ الكَثيرِ والمكْرِ، وما يودُّونه، وما

يبيئونه، لأهل الإيمان.

يذكر داءهم، وما تطويه صدورهم، ثم يذكر للمؤمنين ما

يدفعون به كيدهم، وما يحفظون به أنفسهم.

وترى ذكر الداء والدواء مجملاً في آية واحدة، بعد تفصيل وبيان:

﴿ إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا

وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (1)

واقرا الآيتين قبل هذه الآية، من سورة آل عمران لتري كيف

تُحَفَظُ بهداية القرآن، وأنت تستجيب لندائه، فتأتمر بما أمرت به، وتجتنب ما نهيت عنه.

\*\*\*

(1) آل عمران: ١٢٠.

# التداوي بالقرآن



obeikandi.com

## التداوي

### بالقرآن

إن في القرآن شفاءً، وفي القرآن هُدًى ورحمة.

فما المراد بالشفاء؟

هل هو شفاءٌ خاصٌ لِمَا في الصدور من شكٍّ وريبٍ؟

أم شفاءٌ عامٌ لِمَا في الصدور والأبدان؟

نودُّ أن نقف من ذلك على أمور:

أولاً: وردت كلمة "شفاء" في أربعة مواضع من القرآن الكريم:

\* في سورة "يونس" الآية ٥٧:

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي

الْصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

\* وفي سورة "التَّحْلِ" الآية ٦٩:

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴿٦٩﴾

\* وفي سورة "الإسراء" الآية ٨٢:

﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾

\* وفي سورة "فُصِّلَتْ" الآية ٤٤:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴿٤٤﴾

ثانياً: الواضح من سياق الآية في سورة "النحل" أن المراد من قوله تعالى: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ هو العسل.

وفي الآيات الأخرى المراد به هو القرآن الكريم. وقد جمع الرسول ﷺ بينهما في قوله: « عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ: العَسَلِ، وَالْقُرْآنِ »<sup>(1)</sup>

فالقرآن شفاء لما في الصدور، والعسل شفاء من كل داء. ثالثاً: للعلماء قولان في كون القرآن شفاء. أحدهما- أنه شفاء للقلوب: بزوال الجهل عنها، وإزالة الريب. شفاء من الوسوسة، والقلق، والحيرة، والهوى، والدنس، والطمع، والحسد، ونزغات الشياطين، وكافة العلل، التي تدمر المجتمع، وتذهب بأمنه وسلامته.

الثاني - شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقي والتعوذ. فإن القرآن شفاء للأجسام إذا رقي عليها به. كما تدل له قصة الذي رقى الرجل اللديغ بـ"الفاتحة" وهي صحيحة مشهورة.

ففي صحيح البخاري، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ - رضي الله عنه - :  
« أَنْ رَهْطاً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْطَلَقُوا فِي سَفَرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ.

(1) ابن ماجه: كتاب الطب.

فَاسْتَضَافُوهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمْ.  
 فُلِدِعَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ.  
 فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ.  
 فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ، الَّذِينَ قَدْ نَزَلُوا بِكُمْ؛ لَعَلَّهُ أَنْ  
 يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ.  
 فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِعُ، فَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ  
 شَيْءٍ، لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ شَيْءٌ؟  
 فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللَّهِ إِنِّي لَرَاقٍ.  
 وَلَكِنْ - وَاللَّهِ - لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ، فَلَمْ تُضَيِّفُونَا.  
 فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا.  
 فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ.  
 فَأَنْطَلَقَ، فَجَعَلَ يَنْفُلُ وَيَقْرَأُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾... (1)  
 حَتَّى لَكَأَنَّما نُشِيطَ مِنْ عِقَالٍ (2) فَأَنْطَلَقَ يَمْشِي مَا بِهِ قَلْبَةٌ.  
 قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ.  
 فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا.  
 فَقَالَ الَّذِي رَقِيَ: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَتَذَكَّرَ لَهُ  
 الَّذِي كَانَ، فَتَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا.  
 فَتَقَرَّمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَذَكَّرُوا لَهُ.

(1) الفاتحة: ٢.

(2) أي: كأنما فك من حبل كان مشدوداً به.

فَقَالَ: « وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ ؟ أَصَبْتُمْ.. اقْسِمُوا وَأَضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ (1) (2) »

فالأدعية الماثورة، وتلاوة الفاتحة والمعوذات، وغيرها من وسائل الفرج والبُرء، بإذن الله.

رابعاً: لا يعني هذا الاكتفاء بالرقى عن المداواة والعلاج بالأدوية النَّاجِعَةِ؛ فذلك كُله من الوسائل التي أذن الشَّرْعُ بها، بل وأوجبها؛ لِصِيَانَةِ الحَيَاةِ؛ فَإِنَّ الله الذي أنزل الداء قد أنزل معه الدواء، عرف ذلك مَنْ عرفه، وجهله من جهله، ولكنَّ الله لم يجعل شفاء عباده فيما حرَّمه عليهم.

خامساً: ما يفعله بعض العوامِّ من إهمال علاج المريض المبتلى بمرض يحتاج إلى طبيب متخصص، سواء في الأمراض الباطنية أو الجراحية أو العصبية، أو نحو ذلك؛ اعتماداً على مجرد التلاوة، فهذا جهلٌ بحقائق الدِّين، وإهدارٌ لِقَدْرِ العلم الذي وهبه الله للإنسان، وعظمة، ورفع شأن علمائه والعاملين به.

فإنَّ الأدوية المباحة شرعاً - حسبما يعرفه علماء الطب والمعالجة بما يناسب منها - من باب الأسباب التي أمرنا بالأخذ بها، ولا منافاة بينها وبين التوكل على الله.

سادساً: من الخير أن يجمع الإنسان بين الرقى بالقرآن، والإخلاص

(1) أي: اجعلوا لي منه نصيباً.

(2) البيهاري: كتاب الطب.

في الدعاء، وبين التداوي بالأسباب العادية المناسبة للداء، بعد مراجعة المتخصصين في الطب ومعرفة الدواء.

ولكن لا يجوز للمريض أن يذهب إلى الكهنة، الذين يدعون معرفة المغيبات؛ ليعرف منهم مرضه، أو يستحضرون الجن؛ ليستعينوا بهم على ما يريدون، فإن ذلك قد يفضي إلى الكفر والضلال.

سابعاً: مع الأخذ بالأسباب التي شرعها الله، على الإنسان أن يكون - دائماً - على يقين بأن الأمر كله لله، فلا يسند الفضل في شفائه

إلا لله ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (1)

فإن الأخذ بالأسباب طاعة..

وإبطال الأسباب - التي شرعها الله - معصية..

وإسناد الفضل لغير الله مفسدة ومضيعة..

وشكر الناس لا يناقض ذلك؛ فإن « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ » (2)

﴿ وَمَنْ يَعْصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (3)

\*\*\*

(1) الشعراء: ٨٠.

(2) الترمذي: كتاب البر والصلة، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(3) آل عمران: ١٠١.

obeikandi.com

الغائبة  
عَودَ عَلَى بَدءِ



obeikandi.com

## الخاتمة

### عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ

﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾<sup>(1)</sup>

إنَّ الترتيب الذي نراه في هذه الآيات من سورة "الرحمن" يُوحى بما يجب أن يكون، من جعل القرآن صلة بين الإنسان والرحمن..

فإنَّ كتابَ الله سببٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض.

لن تعمى الأبصارُ، ولن تضل القلوبُ، ولن تزل الأقدام ما اعتصمت به.

« أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله ؟ »

قالوا: نعم.

قال: « فإنَّ هذا القرآن سببٌ، طَرَفُهُ بيدِ الله، وطَرَفُهُ بأيديكم.

فتمسكوا به؛ فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً ».

القرآن والإنسان.

القرآن يُرى عملاً في سلوك الإنسان. من أجل ذلك جعل الله الأسوة

بِمَنْ « كان خُلُقُه القرآن ».

فإنَّ للإنسان شئونه وقضاياها..

وله مشاكله وحاجاته وضروراته..

وللشيطان مع الإنسان نزعات وفتن ومُغريات.

وللنفس رغبات ونزوات وتطلعات.

(1) الرحمن: ١ - ٤.

وفي كل عصر قضايا ومستجدات.  
 وللإنسان أجلٌ محدود، مُسمًى عند الله، لا عند الناس..  
 وللدنيا غرورها وبلاؤها، وكلُّ ما فيها إلى زوال.  
 وللآخرة زادها وخيرها، وهي دارُ القرار.  
 والإنسان - بأجله المحدود في الدنيا المدبرة - يقترب - في كل لحظة -  
 من آخرةٍ مُقبلَةٍ.  
 ولا شكُّ أنَّ الإنسان أحوج ما يكون إلى دوام الصلَّة بالله، وهو راجع  
 - لا محالة - إليه، ومحاسبٌ بين يديه.  
 والصلة بالله في الاعتصام بحبل الله، والافتداء برسول الله.  
 والصلة بالله لدنيا الإنسان وأخراه، ولا غنى له - في كل لحظة -  
 عن عَوْنٍ وتوفيقٍ من الله.  
 من هنا رأينا رسولَ الله ﷺ يُجمل لنا ما يؤدِّيه القرآنُ لمن استمسك  
 به، من عصمةٍ ونجاةٍ، حيث قال ﷺ:  
 « أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ »  
 قيل: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟  
 قَالَ: « كِتَابُ اللَّهِ.  
 فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ.  
 وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ.  
 وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ..  
 هُوَ الْفَصْلُ، لَيْسَ بِالْهَزْلِ.

مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جِبَارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ.  
 وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ.  
 وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ.  
 وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ.  
 وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ.  
 هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ.  
 وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ.  
 وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ.  
 وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ..  
 وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ.  
 ..... مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ.  
 وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ.  
 وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ.

وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»<sup>(1)</sup>

وَيَا لَهُ مِنْ فَضْلٍ، وَيَا لَهَا مِنْ رَحْمَةٍ، أَنْ تَكُونَ الصَّلْوةَ بَيْنَ الْخَالِقِ  
 وَالْمَخْلُوقِ - بِهَذِهِ الصِّفَةِ - مَحْفُوظَةً مَيْسِرَةً.

وَلَا حُجَّةَ وَلَا مَعذِرَةَ لِمَنْ جَاءَ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُجَّةً عَلَيْهِ، لَا لَهُ.  
 فَإِنَّ الْقُرْآنَ شَافِعٌ مَاحِلٌ. مَنْ شَفَعَ الْقُرْآنُ لَهُ نَجَا وَفَازَ، وَمَنْ كَانَ

(1) الترمذي: كتاب فضائل القرآن، وقال: هَذَا حَدِيثٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ  
 وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ. وَفِي الْحَارِثِ مَقَالٌ.

القرآن حُجَّةً عَلَيْهِ خَسِرَ وَهَلَكَ.

روى أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال:

« القرآن شافع مشفع، وماحل<sup>(1)</sup> مصدق، من شفيع له القرآن نجا،  
ومن محل به القرآن - يوم القيامة - كَبَّهُ اللهُ لوجهه في النار، وأحقُّ مَنْ  
شَفَعَ له القرآنُ أهله وحَمَلَتُهُ ، وأولى مَنْ مَحَلَّ به مَنْ عَدَلَ عنه وَضِيَّعَهُ »

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال:

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ شَافِعٌ مَشْفَعٌ، مَنْ اتَّبَعَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَهُ  
- أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُ - دَح<sup>(2)</sup> فِي قَفَاهِ إِلَى النَّارِ »  
فَطُوبَى لِمَنْ كَانَ الْكَرِيمُ شَفِيعَهُ.

وَوَيْلٌ لِمَنْ كَانَ الذُّكْرُ الْحَكِيمُ خَصِيمَهُ.

طُوبَى لِقُلُوبٍ وَبُيُوتٍ اسْتَتَارَتْ بِنُورِ الْقُرْآنِ، فَحَفَّتْهَا الْمَلَائِكَةُ،  
وَعَشِيَّتْهَا الرَّحْمَةُ.

وَوَيْلٌ لِقُلُوبٍ وَبُيُوتٍ خَلَّتْ مِنْهُ، فَاسْتَحُوذَ عَلَيْهَا الشَّيَاطِينُ.

روى الترمذي، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ  
كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ »<sup>(3)</sup>

وقال رجل لأبي الدرداء - رضي الله عنه -: إِنَّ إِخْوَانًا لَكَ مِنْ أَهْلِ

(1) الماحل: الخَصْمُ والمنازع.

(2) الدَحُّ: الدَّفْعُ بعُنف.

(3) الترمذي: كتاب فضائل القرآن، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الكُوفَة يُقرئونك السلام، ويأمرونك أن تُوصيهم.

فقال: « أقرئهم السلام، ومُرهم فليعطوا القرآنَ خَزَائِمَهُمْ<sup>(1)</sup>؛ فإنه يحملهم على القصد والسهولة، ويُجنبهم الجورَ والخزونة.»  
وذلك من فقه القرآن.

فإنَّ من فقه القرآن أن نعرفَ ما يحملنا القرآن عليه وما يهدينا إليه يحملنا على العدل والقسط، ويُجنبنا الجور والظلم.  
يحملنا على السهولة واليسر ويجنبنا الصعوبة والعسر.  
فعلى الإنسان أن يعدل به في كل شيء.

في القول: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾<sup>(2)</sup>

وفي الحكم: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾<sup>(3)</sup>

وفي الشهادة: ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾<sup>(4)</sup>

وفي الكتابة: ﴿ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾<sup>(5)</sup>

في كل شيء يقودنا القرآن إلى العدل؛ حتى لا نظلم أنفسنا، أو نظلم غيرنا، أو نظلم الحقيقة حيث كانت مع عدو أو صديق، أو قريب

(1) المعنى: يَنقَادُونَ له، وَيُطِيعُونَ أمره. والخزامة: حَلَقَةٌ من الشَّعْرِ تُوضَعُ في ثقب البعير، يُشدُّ بها الرِّمَامُ فينْقَادُ.

(2) الأنعام: ١٥٢.

(3) النساء: ٥٨.

(4) الطلاق: ٢.

(5) البقرة: ٢٨٢.

أو بعيد.

ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل بالبينات، وأنزل معهم الكتاب والميزان؛ ليقوم الناس بالقسط.

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾<sup>(1)</sup>

والميزان هو العدل الذي ثبته الله في الأرض، ونهى أن يقع التجاوز فيه بقوله: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾

والله قد خلق السماوات والأرض بالحق والعدل؛ لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل.

ولهذا قال الله: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ ليعلم أن القيام بالقسط وسطاً، لا يقبل الطغيان أو الخسران. إذ الطغيان فيه أخذ الزائد. والإخسار: إعطاء الناقص. والقسط: التوسط بين الطرفين المذمومين.

ولهذا قال "القرطبي" في قوله: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي: افعلوه مستقيماً بالعدل.

وقال قتادة في هذه الآية:

(1) الرحمن: ٧ - ٩.

« اعدل - يا ابن آدم - كما تُحبُّ أن يُعدَلَ لك، وأوفِّ كما تُحبُّ أن يُوفَّى لك؛ فإنَّ العدلَ صلاحُ الناسِ. »  
وذاك ما أمر به الله، الذي خلق السماوات والأرض بالحق، وأنزل الكتاب والميزان.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ... ﴾<sup>(1)</sup>

وقد أعان الناسَ على تحقيقه، فأَنْزَلَ الحديدَ فيه بأسَ شديدٍ، ومنافع للناس؛ ليُقَامَ العدلُ كما أمر الله، بلا طُغيانٍ أو خسران.  
وفي الحديدِ بأسٌ شديدٌ يُرَدِّعُ به مَنْ بَغَى؛ حتى يَفِيءَ إلى أمرِ الله.  
وفي الحديدِ منافعٌ للناسِ لا تُصَانُ إلاَّ بالعدل.  
والعدل لا يتحقَّقُ إلاَّ بتغليبِ أمرِ الله على هوى النفس.  
والإنسانُ مسئولٌ عن صلاحِ نفسه قبل أن يُطَلَّبَ منه إصلاحُ غيره.  
« ومُعَلِّمٌ نفسه وموَدِّبٌها أَحَقُّ بالاحترامِ من مُعَلِّمِ الناسِ وموَدِّبِهِم. »  
والإنسانُ الصالحُ تصلحُ به الأمورُ الفاسدة.  
والإنسانُ الفاسدُ تفسدُ به الأمورُ الصالحة.  
من هنا كان هدفُ القرآن هو الإنسان، الذي علَّمه الله ما لم يكن يعلم.

وتلك قضية الحياة « ابتلاءً.. وفتنةً.. وامتحاناً » يُمْتَحَنُ الناسُ فيها بما أَنْزَلَ اللهُ من كتاب، وبما وضع من ميزان.

(1) النحل: ٩٠.

ليعلم الله مَنْ ينصره، ويؤثر رضاه، ومَنْ يخذله، ويؤثر هواه.  
وفي نصر الله نصر للفضائل والمكارم، التي تُصان بها كرامة  
الإنسان « والله غني عن العالمين ».

ومن رحمته بخلقه أن جعل نصر العدل، والحق، والأمانة، والبر،  
ومكارم الأخلاق، نصراً له؛ لينعم الناس بالسلام والأمن حقيقة لا  
ادعاء، وهم يعبدون إلهاً واحداً، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً.

﴿ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (1).

\*\*\*

## الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	* الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان .....
١١	* حديث القرآن .. والإنسان .....
١٧	* وفاق لا اختلاف فيه .....
٣٥	* الإنسان مخلوق مسئول .....
٤٩	* الأمانة التي حملها الإنسان .....
٦٥	* ظلم الإنسان لنفسه .....
٨١	* ماذا يعني قصص القرآن بالنسبة للإنسان ؟ .....
٩٩	* الإنسان علم بالقرآن ما لم يكن يعلم .....
	* القرآن حفظ من أجل الإنسان
١٣١	وما حفظ للإنسان لا يحفظ الإنسان إلا به .....
١٥١	* التداوي بالقرآن .....
١٥٩	* الخاتمة : عود على بدء .....

تم الكتاب بتوفيق الله